د. سعاد الصباح

امرأة الزمن الجميل

قراءات في شعرها وحياتها

علي المسعودي

سعاد الصباح

امرأة الزمن الجميل

قراءات في شعرها وحياتها

تأليف: علي المسعودي

سعاد الصباح
امرأة الزمن الجميل

قراءات في شعرها وحياتها

إعداد: علي المسعودي

الطبعة الأولى ٢٠٠٤م

إخراج: أحمد عقل

صف وتنفيذ: سميرة أجنيوي

جرافيك: ناصر غانم

تصحيح: هيثم سلامة

الناشر: شركة المختلف للطباعة والنشر

توزيع: المجموعة الإعلامية العالمية

الكويت - ت: ٤٨٢٣٤٣٤

Email: almasoudi20@yahoo.com

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

مطابع السيوف الذهبية ٣ - ٤٨١٧١١١

إهداء

إلى:

كل القلوب البيضاء... في القصر الأبيض

تقديم:

حفيدة الحاكم... زوجة نائب الحاكم

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبدالله.

وبعد،،

قبل نحو خمس سنوات ألّفت كتاباً عن تجربة الدكتورة سعاد الصباح في الحياة وفي الشعر يحمل عنوان «حمامة السلام سعاد الصباح» باعتباره الجزء الأول من مؤلّف في عدة أجزاء، هذا هو الجزء الثاني منها.

وقد احتوى الجزء الأول على مجموعة من اللقاءات التي أسعدتني الظروف فأجريتها مع الدكتورة سعاد الصباح، أغلبها تم في «القصر الأبيض» منزل الدكتورة سعاد وعائلتها الكريمة.

وسواء كانت هذه اللقاءات شفهية أو مكتوبة، فقد أمدّتني بمتعة خاصة، تنطلق من محبتي الكبيرة لهذه الشيخة العزيزة وانحيازي التام لإبداعها، ونشاطاتها الفكرية والثقافية والاجتماعية والإنسانية.

وتظل لسعاد الصباح بصمة خاصة في حياتي الأدبية والاجتماعية، بصفتها كانت مشجعاً كبيراً لي، من حيث تدري أحياناً أو من حيث لا تدري أحياناً أخرى.

وها أنا أسعد نفسي الآن من جديد، في الكتابة عن سعاد الصباح الإنسانة المثقفة، الشيخة، الدكتورة، الأم، التي ملأت حياتها عملاً وعطاء للآخرين دون حدود.

ولتفادي تكرار عنوان الجزء الأول «حمامة السلام»، فضلت أن يكون هذا الجزء بعنوان «امرأة من الزمن الجميل»... فسعاد الصباح شاهد على عصر مرّ أغلبه، لكنه سيظل راسخاً ومؤثراً في ما سيأتي من أزمنة، بصفته زمن العطاء الكبير والجهد الكبير، والبساطة في قلوب الناس، والنقاء في التعامل.. وهي نموذج لامرأة كويتية تحدّت المستحيل لتثبت قدراتها، ولتواصل مسيرتها وسط قناعات مجتمع لا يؤمن غالباً بدور المرأة، ويعتبرها قطعة أثاث مكمّلة لا أساسية. كما أن سعاد شاهد على عصر كويتي حمل الكثير من التغيير في البناء الاجتماعي والمعرفي والحضاري، بصفتها زوجة الشيخ الراحل عبدالله المبارك الصباح أصغر أبناء مؤسس الكويت الشيخ مبارك الصباح، وقد كان للشيخ عبدالله المبارك دور كبير في تأسيس الكويت وإدارة شؤونها من خلال المناصب الرفيعة التي تولاها.

ولا تنسى سعاد الصباح هذا الدور الذي قام به الشيخ عبدالله في حياة الكويتيين بشكل عام، وفي حياتها هي بشكل خاص.

سعاد الصباح إذن... هي امرأة من الزمن الجميل...

امرأة لا تتكرر...

تبقى «وردة الكويت»... و«منارة الخليج»... و«صوت العرب الصادح بالإنسانية... والحلم بمستقبل أفضل»...

وهي كذلك حفيدة حاكم الكويت الشيخ محمد الصباح... من ابنه الشيخ محمد الذي حمل اسمه بعد وفاته، حيث ترعرعت الشيخة سعاد في أجواء من العطاء والمحبة في ظل والدها الشيخ محمد، تعلّمت، وواكبت الحضارة، وتطلعت من نافذة طموحها إلى غد أرادت أن تضع فيه بصمتها الخاصة والمميزة، أحبت الشعر

والرسم، وقرأت الواقع جيداً، وتمسكت بأحلامها الجميلة... وبانتمائها الحميم إلى الكلمة، وإلى الإنسان... انتظمت في التعليم، وعاشت أجواء الترابط الأسري الصادق، ووجدت أباً يحترم وجودها إنسانياً ومعرفياً، وأماً تحبها، وأخوالاً يحتضنون طفولتها، حتى شبت عن الطفولة قليلاً بعقل كبير... فجاء الشيخ الكبير يخطبها للزواج...

وبرغم فارق السن بين الشيخ عبدالله المبارك والشيخة سعاد الصباح، حيث يكبرها بأعوام عديدة، إلا أن التوافق الفكري والروحي كان منطلق العلاقة الوطيدة التي تجذرت ورسخت، وكانت أساساً لبيت عتيد عماده الحب والأخلاق، أثمر رجالاً ونساء، صاروا هم مضرب مثل في حسن الخلق، وسعة العلم...

سعاد الصباح... هي رحلة حياة، ورحلة أمل، ورحلة حب، ونشيد سلام يعرفه الزمن جيداً...

وما هذا الإصدار إلا نَزْر يسير من كثير يجب أن يقال عن «امرأة الزمن الجميل».

علي المسعودي

الكويت ٢٠٠٤/٩/١م

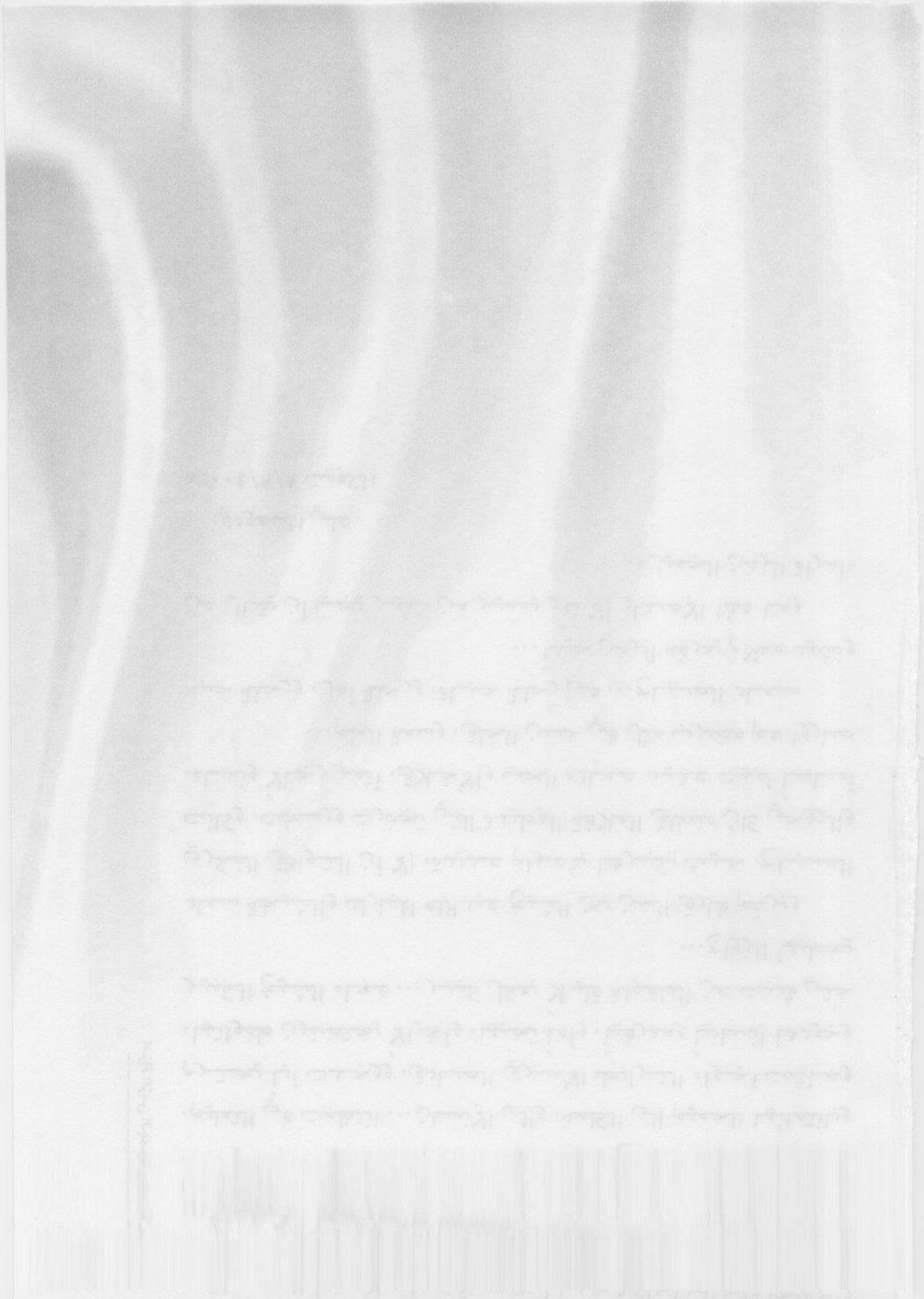

موجز نشرة الحب

لستُ أتحدث بنيّة التعريف بسعاد الصباح، فالمعروف لا يُعرَّف، لكنني أحتفل بحضورها عبر الكلمات التي نأخذها منها ونردها إليها، بصفتها صانعة حب، وجمال، وألق إنساني يستحق الخلود.

سعاد الصباح... سفيرة السلام، وأغنية الحمام، وشاعرة البوح الرقيق، والألم الطويل... والمجادِلة بفكر مستنير بإزاء شطط مع الحس الذكوري القامع.

سعاد الصباح... شاعرة الوطن والإنسان، وسيرة الزمان، إذ يشرق وجهها ويورق شعرها، فنكون حينها بأبهى حُلل الكلمات، ونهنئ أنفسنا بأعذب الأمسيات.

لطالما طمحت إلى تغيير العلاقة المحكومة بدوائر الرعب والإلغاء، لتستبدل بها علاقة إنسانية يكون الرجل فيها حبيباً للمرأة... لا جلاّداً ولا سجّاناً، ومبعث أمن لا مصدر خوف وقلق وشقاء.

ترفض العلاقة القائمة على الإكراه والقسر والانقياد الأعمى لقوانين الجهل التي تلغي وعي المرأة وإرادتها:

هذه الدائرة التي
رسمتها بالحبر الصيني
حول فكري وذوقي وعاداتي

هكذا ترسم سعاد الصباح شكل الحصار، وأهدافه، بالشعر توضح ما تتعرض له الأنثى في زمن الإلغاء، وتكمل في وصف الدائرة:

هذه الدائرة
بدأت تأخذ شكل المعتقل
فلا تضيّق الدائرة عليّ كثيراً
لأنني أريدك حبيبي . . . لا سجّاني

وفي علاقة الرجل العربي مع المرأة، نجد سعاد الصباح لا تدين الرجل الأمّي المتخلّف المتشبث بمفاهيمه وعزلته عن روح العصر وحسب، بل تدين أدعياء الثقافة والفكر الذين يرفعون شعارات العدالة والحرية... ومازالوا يحملون جاهلية الأعراب.

لكنها مع ذلك، لا تتخلى عن أمومتها للرجل... الابن، وللرجل الحبيب، إذ تنهمر عواطفها مثل شلالات صيف، لتثير أحاسيس الحب العظمى، وتفجر كل مكنونات العطاء الإنساني الشفاف، الذي لا ينتظر مكافأة نظير حبه. تتمنى هذه الأمنيات الأمومية الشفافة، التي تدل على رقة قلب ودقة شعور، وروعة إحساس:

أحياناً... يخطر لي أن ألدك
لأحمّمك
وأنشف قدميك
وأمشّط شعرك الناعم
وأغنّي لك قبل أن تنام

هكذا تعطي أبلغ معاني العطاء، عندما يتحول الحبيب إلى طفل يتوافر له كل ما يطلب من رفاهية... من الاستحمام إلى أغنية النوم.

وعندما تقف سعاد الصباح ضد «جاهلية» الرجل، لا يعني أنها تقف ضد الحب، أو تعارض العلاقة معه، بل إنها تسعى إلى إيجاد علاقة ترتقي بالمشاعر، وتنقّي الشكل المفترض لتجاذب الطرفين الفطري، فهي شاعرة الحب... التي حرّضت على نقاء القلوب، ودعت إلى رفع رايات العطاء في كل نبض، وكل آهة شوق.

وما سعاد الصباح إلا أغنية حب طويلة، طويلة... تبدأ ولا تنتهي، تأخذنا إلى أبعد مستحيل، وأقرب نقطة التقاء بين قلبين.

أحبّك حتى التبخّر

حتى التقمّص فيك
وحتى فنائي . . .

وكذا قولها:

يسألونني ما لون السماء ؟
فأطلب منهم أن يتوجهوا بهذا السؤال
إليك . . . فأنت سمائي ! !

لكن هذا الحب الكبير عند سعاد الصباح، والاندفاع المبالغ بالعواطف، يقابله صمود كبير على الإخلاص والوفاء حتى آخر رمق.

وما قصيدتها «آخر السيوف» التي تناجي فيها زوجها الراحل إلا دليل واضح على أن سعاد معجونة بالوفاء والقلب الذي لا يتقلب، بل يختار... ولا يتزحزح عن اختياره.

هذا موجز من سعاد الصباح... الشيخة، الشاعرة، الأكاديمية، الإنسانية، الأم، الزوجة والحبيبة...

وسنقرأ تفاصيل نشرة الحب... في صوت وشعر الشاعرة، حيث الامتداد وحقيقته، في ملامسته لأرض الواقع، ومستحيل الحلم...

ميلاد... للوطن...
للحب... للناس... للشعر

٥/٢٢... هو يوم ميلاد سعاد الصباح. يوم تفتحت زوايا الوطن الصغير والكبير... الوطن القلب والوطن الأب والوطن في عيون الأمل... والوطن في عيون الصغير... والوطن الوطن... بما تعنيه ثبوتات الهوية والانتماء.

أشرقت سعاد الصباح يوم ٥/٢٢... مثل أي وردة نضجت على ماء سلسبيل وأرض خصبة محروثة جيداً بمعاول الثقافة والسياسة والفكر والأخلاق.

٥/٢٢... هو يوم ميلاد شاعرة، أي يوم ميلاد جميل، سيعيش على صوتها، صورتها، نبضها... شعاراتها... وحربها الطويلة ضد أفعال التحنيط والتجميد والتكميم والتغريب.

٥/٢٢... هو برج الجوزاء...

البرج الذي يعيش على العاطفة، ولا يخرج من دائرتها أبداً.

الهادئ، الرومانسي، الشفاف، المحب للاستكانة، الهارب من الضوضاء دوماً، الذي يحب بعنف... ويعطي كل ما لديه، وإن وجد ما لا يليق من صديق يترك الجمل ما حمل، دون عتاب... يخرج محمّلاً بأساه... غير آسف على حساب خسائر وأرباح. لا يحب أن يجرح حتى بالعتاب...

فما هي سعاد الصباح بالضبط؟

ما عليك إلا أن تمر في «الدائري الرابع»... الشارع النابض في قلب الكويت، تصعد الجسر الذي يتقاطع مع طريق الملك فهد بن عبدالعزيز... تطالع إلى يمينك وأنت متجه إلى السالمية... لتطل إلى باحة «القصر الأبيض»... حيث سيدة القصر سعاد الصباح.

سيدة القلب الأبيض، ذاكرة جيل مختزنة في اسم شاطئ البحر الذي نذهب إليه لنلتقي نوارس الحنين، ونداعب نعومة الرمل النقي... ونتطهر بملح الحياة.

سعاد الصباح...

المحاربة العنيدة...

الرقيقة الصلبة... التي تخرج من بين شفتي وردة مرج... أو حرقة ثلج.

حاملة شعلة الحروف:

نحنُ باقونَ هُنا...

نحنُ باقونَ هنا...

هذه الأرضُ من الماءِ إلى الماءِ.. لنا

ومن القلبِ إلى القلب... لنا

ومن الآه إلى الآه... لنا

كلُّ دبُّوس إذا ادْمى بلاديَ

هوَ في قلبي أنا

منيرة الدرب لطلبة علم مازالوا يعطون من عطائها لوطنهم، بعد أن تكفلت نفقات تعليمهم ورعايتهم خارج الوطن أو داخله في الدراسات العليا والجامعات والمعاهد والمدارس، بانية جسد الحروف، التي كرّمت الأدباء العرب في وقت النسيان... وزمن «موضة الإلغاء»!

بأية مناسبة أكتب عن سعاد الصباح؟

بمناسبة «سعاد الصباح» بالطبع.

هي مناسبتنا الدائمة، التي لا تحتاج إلى مناسبة. مناسبة الحنين، والابتسامة المشرقة التي يتحلى بها وجه «أم مبارك»... الابتسامة الندية التي تفوق جمال أي أحمر شفاه.

هي الحياة الحرة... التي كافحت بنبل، وحاربت بسمو، وجاهرت بصلاح الرأي:

نحنُ باقُونَ هنا

هذه الأرضُ هي الأمّ التي ترْضِعُنا
وهي الخَيْمَةُ، والمعْطَفُ، والملجأُ
والثوبُ الذي يستُرُنا
وهي السَّقْفُ الذي نأوي إليهِ
وهيَ الصَّدرُ الذي يُدْفِئُنا . . .
وهي الحرفُ الذي نكتُبُهُ
وهي الشعرُ الذي يكتبنا
كلما هم أطلقوا سهماً عليها
غاصَ في قلبي أنا . . .

• • •

سعاد الصباح حملت حزن جيل، انكسار مرحلة، وانتصار إرادة، فلم يهزمها خذلان مرّ... ولم يلغ ابتسامتها أمر، لم يضعف حماستها لقضاياها ظرف، ولم تبدد عزيمتها مراوغة فرد، أو مجتمع بأكمله.

ظلت كما هي، زينة جيلنا، أمله الذي لا يغيب، شمسه التي تشرق كل صباح... لتنشر ضوء البهاء في كل الأرجاء.

امرأة الشعر، والاقتصاد، والسياسة، والأمومة الدؤوبة التي يحمل قلبها كل أبناء الحياة:

سندباد كان بحّاراً خليجياً عظيماً . . . من هنا
والذين اشتركوا في رحلة الأحلام ، هم أولادُنا
والمجاديفُ التي شقتْ جبالَ الموجِ كانتْ من هنا . . .
إننا نعرفُ هذا البحرَ جداً . . . مثلما يعرفُنا . . .
فعلى أمواجه الزُّرق وُلِدْنا

ومع الأسماكِ في البحر سَبَحنا
ومع الصبيانِ في الحي... لعبنا... وسهرنا...
وعشقنا...

•••

هذه الأرضُ التي تُدعى الكويت
هبةُ الله إلينا...
ورضاء الأب والأم علينا...
كم زرعنا أرضها نخلاً وشعراً
كم شردنا في بواديها صغاراً
ونخلنا رملها شبراً فشبرا
وعلى بللور عينيها جلسنا نتمرّى

لم تركن سعاد الصباح إلى الهدوء أثناء محنة الاحتلال، بل كانت صوت الكويت في الخارج، فأصدرت «إليك يا وطني»، وبعد سبعة أشهر من الغياب، عادت إلى حضن الوطن، ترفع راية الفرح عالياً.

لكن القدر عاجلها بخطف فارسها الشيخ «عبدالله المبارك»... فواجهت القدر بصلابة السيف.

خرّجت في جامعتها أساتذة حب وبطولة... هم: محمد، مبارك، شيماء وأمنية... ثم أحفاد تبتهج بهم الحياة.

من شاهد خط سعاد الصباح؟

من شاهد تلك النعومة في الحروف، وذلك الفرح المدلوق في الحبر؟ والانشراح الطافح على الورق؟

تابعت رحلة علاجها... الطويلة تابعت تعبها، صبرها، ثم عودة البهاء إلى وجهها، الذي تجاسر عليه التعب، لكنها هزمته بالإرادة.

كان صوتها شرفة إلى راحة الحياة، مازال بهياً، ناصعاً، قوياً وناعما.

عرفت شعرها كله، الجريء المتجاوز، وعرفت إيمانها العميق بربها، التصاقها بعبادتها، رحلتها إلى العمرة في كل رمضان، وحجها المتواصل، وإحسانها للضعفاء والمحتاجين...

وعرفت قيمة يوم ٥/٢٢... وماذا يعني أن تشرق فيه الشمس.

في صباح يوم من أيام «الزبير»... أشرقت سعاد.

بانت سعاد... ابنة الشيخ محمد الصباح، وحفيدة الشيخ محمد الصباح الحاكم السادس للكويت، وتفتحت عيناها لتعلنا بداية رحلة الحلم والوجود.

تذهب الطفلة إلى مدرستها في البصرة، حيث كانت تقيم هناك في حضن أمها «شيخة أحمد الثاقب» وأخوالها «آل الثاقب» أولاد شيخ الزبير، وتجلس على مقعدها في حجرة الدرس، وتلتقط ذاكرتها رجرجة الماء في الشطوط، وشجو بلابل تغني منذ أزمنة عتيقة، ونخلة باسقة يتساقط من ضفيرتها رطب شهي.

بعد البصرة انتقلت سعاد إلى الكويت، وحملت التلميذة الصغيرة حقيبتها المدرسية وتصميمها على متابعة الدرس وملاحقة الحلم، وتلقت تعليمها في مدرسة حملت اسم الشاعرة العربية «الخنساء» وبعدها في ثانوية «المرقاب». ويطبع الخليج في مخيلتها رقرقة مائه الأزرق ونوارسه البيضاء، وهمهمات صيادي السمك العائدين مع المغيب:

هذه الأرضُ التي تُدعى الكويتْ
نحن معجُونُونَ في ذرّاتِها
نحنُ هذا اللؤلؤُ المخبوءُ في أعماقِها

نحن هذا البلَحُ الأحمر في نخلاتِها
نحن هذا القمرُ الغافي على شُرفاتِها
هذه الأرض التي تُدعى الكويت . . .
هي عطرٌ مُبحِرٌ في دمنا
ومناراتٌ أضاءتْ غدَنا
وهي قلبٌ آخرٌ في قلبِنَا .

في العام ١٩٦٠ تزوجت الشيخة سعاد الصباح من الشيخ عبدالله المبارك الصباح أصغر أنجال «مبارك الكبير» مؤسسة دولة الكويت الحديثة.

وبعد مضي عام من اقتران الشيخة الصغيرة بالشيخ الكبير دخلت البلاد في بحر من التطورات قبيل استقلال الكويت، واستقال الزوج من مناصبه العليا التي من أهمها منصب «نائب الحاكم»، وقرر ساكن القصر الأبيض أن يشد رحاله إلى خارج الكويت، مودعاً في الوقت ذاته حياته السياسية.

القاهرة محطة مائية رابعة في تلك المرحلة، إذ يستقبل النيل على ضفافه العائلة المهاجرة، ومع ذلك:

الكويتيون باقون هُنا
الكويتيون باقون هُنا
وجميع العرب الأشراف باقون هنا
الكويتيون باسم الله . . . باسم السيفِ
باسم الأرض ، والأطفالِ ، والتاريخِ
باقون هنا
نَلْثُمُ الثغرَ الذي يلثمنا
نقطعُ الكفَّ التي تضربُنا

لم تتحل الشيخة الشاعرة بحليّها، بل راحت في القاهرة تقلب

في صفحات العلم ونالت شهادة البكالوريوس في الاقتصاد والسياسة مع مرتبة الشرف عام ١٩٧٣، وهو العام الذي ساق إليها قضاء الله بوفاة ابنها البكر «مبارك الأول» الذي قالت فيه وهي تسجل الفجيعة:

« مبارك كان لي دنيا من الحب أناجيها
وآمالاً أعيش بها، وأحلاماً أغنيها »

من ماء إلى ماء تفرد العائلة شراع السفر مرة أخرى فتبحر إلى ضفاف نهر «التايمز» لتستقر في لندن، وتتابع سعاد دراستها العليا وتحصل على درجة «الدكتوراه» في الاقتصاد عام ١٩٨٣.

في السبعينات بدأت قطوف عرائشها تتدلى، بعد أن اكتملت مراحل التشكيل الشعري والفكري والعلمي، وعادت الأسرة إلى وطنها الكويت، التي كانت تتردد عليها في شهر رمضان من كل عام، وعاد «الشيخ عبدالله المبارك» ساكن القصر الأبيض إلى قصره.

إن كان الشيخ عبدالله المبارك الصباح قد وُهب موهبة رجل الدولة ولم يوهب موهبة الشعر، فإنه استطاع أن يكتب قصيدته المتمثلة في زوجته الشاعرة «سعاد الصباح» التي اتخذت من استقرار عائلتها في موطنها الكويت قاعدة للانطلاق في فضاءات الشعر والغوص في بحوره. لم تسترخ فوق أريكة وثيرة تحت شهادة مصلوبة على جدار قصر فخيم كتب داخل إطارها (د. سعاد محمد الصباح)، فالطفلة التي حملت ذاكرتها ماء «الشط»، وماء «الخليج»، وماء «البحر الأبيض المتوسط»، وماء «النيل» وماء «التايمز»، فردت في مياه خليجها الأزرق شراعاً أبيض عرفته الآفاق وعرفها، حتى صارت ملء السمع والبصر.

وقفت سعاد الصباح بقصائدها - سيوفها، وحاربت، مثلها مثل الكويتيين، جلّهم في الخندق العربي، حتى استدار الخائن على إخوته وحدثت فاجعة الكويت، عندما غزاها الغادر واندلعت نيران حقده في أبوابها الطاهرة.

كُويت، كويت
موانئ أبحر منها الزمان
وواحة حب، وبرّ أمان
وشعب عظيم... وربٌ كريمٌ
وأرضٌ يسيّجها العنفوان

●●●

كويتُ، كويتُ
شواطئ مصقولة كالمرايا
وبحرٌ يوزع كل صباحٍ علينا
ألوف الهدايا
وشاي أبي... وابتسامة أمي
ومحفظتي، وجديلةُ شَعري
وكوبُ الحليب قُبيل الذهاب إلى المدرسة
وأول مكتوب حبٍّ أتاني
فأشعل عاصفة في دمايا...

●●●

مضت الفارسة في دروب النزال، وركبت أفراسها تقاتل من أجل استعادة وطنها السليب، وموّل زوجها الشيخ عبدالله المبارك إذاعة كويتية في لندن تشرح للعالم الحق الكويتي وتدافع عنه، كما قدم الاثنان فلذة كبديهما للكويت فانخرط ابنها «محمد عبدالله

مبارك الصباح» في جيوش تحرير بلاده الكويت، وعاد إلى الوطن

الحبيب ضياؤه الأول.

وتحت سحب الدخان الأسود، المنبعث من سماء الكويت المحررة بعد إحراق العراق آبار نفطها، شيعت سعاد جثمان زوجها الذي توقف قلبه في لندن بعد أشهر من تحرير وطن عمل له طويلاً وشارك في إرساء دعائم مؤسساته الحديثة.

نشرت الشيخة الدكتورة سعاد الصباح ديوانها «برقيات عاجلة إلى وطني» عام ١٩٩٥، وضمنت ديوانها «آخر السيوف» الذي صدر عام ١٩٩١، مرثياتها لزوجها الراحل الذي وقف وراءها وأسهم في تكوينها ودفعها لتحتل مكانتها تحت الشمس وداخل العيون.

طفلة شيخة ولدت في «الزبير» وعبرت المياه كلها... من ماء الفرات إلى الخليج إلى البحر المتوسط إلى النيل إلى التايمز إلى ماء الخليج ثانية.

●●●

كويت، كويت
هنا... ابتدأتْ رحلة السندبادْ
هنا... وردة البحر قد أزهرتْ
وراح ابن ماجد
يقطف نجماً... ويزرع نخلاً...
ويخلق في لحظات التحدي بلادْ...
هنا الشعر والنخل يغتسلان معاً
في مياه الخليجْ.. فجاءت رباب إلى وعدنا
وبانت سعاد...

●●●

كويت، كويت
أحبك... كالشمس تعطين ضوءك للعالمين
أحبك كالأرض...
تعطين قمحك للجائعين
وتقتسمين الهموم مع الخائفين...
وتقتسمين الجراحَ مع الثائرين...

●●●

مجمرة الوجع والحلم والوجود عبرت مياهاً بأكملها، ولكن جمرات الخلق فيها لم تبعد.

يقول الأستاذ محمد خالد القطمة، شارحاً بعض سجايا الدكتورة سعاد بصفته صديق العائلة، ومدير «دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع»: «العلاقة القائمة بين سعاد الصباح وأفراد أسرتها تجسد الحب الكبير والتفاهم الجميل جداً، والاتصال اليومي الذي لا ينقطع عندما يكون أحدهم على سفر... وعندما سافرت سعاد الصباح إلى العلاج كان معها الأولاد والأحفاد... وسعاد تؤمن بأن العلم هو أهم ما يجنيه أبناؤها في حياتهم قبل دخولهم الحياة العملية، وأذكر عندما كانت ابنتها الصغرى «شيماء» مقبلة على امتحان آخر العام، كانت الأم سعاد الصباح تجلس معها طوال ليالي الامتحان، ولا ترد على أي اتصال هاتفي من أي كان.

وللأحفاد في حياتها لون خاص جداً، فهي شديدة التعلق بهم إلى حد لا يوصف، فهم يقطعون عليها مجالسها أياً كان الضيوف معها على الهاتف وعندما تسمع صوت عبدالله حفيدها يصرخ إلى جانبها، تضطر إلى قطع المكالمة أو تأجيلها حتى يهدأ الصغير ويستكين».

وعن هواياتها يقول الأستاذ القطمة «إنها القراءة، ثم الموسيقى الكلاسيكية. ومن يجلس إلى مكتبها الخاص يعيش في جو مريح من الموسيقى الكلاسيكية».

أتغطى بشراشف صوتك القمريّ
كما تحتضن طفلة لعبتها
في ليلة العيد . . .

●●●

صوتُك بلبلُ . . وصيف
وغاباتُ سويسرية . . .
صوتك . . . أحطاب . . . وشموع . . . وفحم مشتعل . . .

●●●

صوتك شال من الصوف . . .
ألبسه في ليالي البرد والصقيعْ
صوتك مظلة . . . وغمامة . . . وديوان شعر . . .
صوتك كنف . .
صوتك بيتي . . .

ومن هواياتها الأخرى حبها لكرة القدم، ودعمها للفرق. وأيضاً يستهويها البحر، فتذهب في رحلات بحرية على يختها الصغير المسمى باسم صغيرتها «الشيماء».

وسعاد الصباح لا تتصرف باعتبارها أميرة أو شيخة، إلا فيما يلتزم ذلك من واجبات البروتوكول، وأجمل الأسماء عندها ليس الشيخة سعاد أو الدكتورة سعاد، وإنما «أم مبارك». وهي تتعامل مع الناس ببساطة شديدة، والذي كان يشاهدها في معرض الكتاب العربي في الكويت يعرف من هي سعاد الصباح التي كانت في

جناحها تقوم بنفسها بترتيب الطاولات والكتب ولصق الصور والشارات الصفراء رمز الأسرى.

ويسرد محمد خالد القطمة هذه الحادثة:

«أذكر مرة في المعرض جاءتها فتاة كويتية معاقة على كرسي متحرك، وطلبت منها أن توقع على ديوان شعري لسعاد الصباح كانت الفتاة اشترته، فاحتبست دموعها ووقّعت الديوان، ثم أمسكت الكرسي المتحرك تقوده أمامها لترى الفتاة جميع أنحاء أجنحة المعرض، وبعد انتهاء الجولة مضت بالكرسي وعليه الفتاة إلى حيث كانت سيارة الفتاة تنتظرها.

عن بداية الشعر... تقول سعاد الصباح:

كنت في الثالثة عشرة من عمري حين شعرت أن في داخلي مخزوناً لكتابة خارجة عن مألوف الكتابة النثرية، أذكر أننا كنا في حصة الرياضيات، حيث كتبت أول بضعة أبيات من الشعر، ولاحظت مدرّستي ارتباكي، فأقبلت إليّ متمهلة... طلبت الاطلاع على ما كنت أكتب... وكانت دهشتي أنها لم تؤنبني على انصرافي بل شجعتني على الاستمرار في المحاولة، وهي تقول لي: لديك باكورة شعر.

ورحت ألتهم كل ما يصل إليّ من دواوين الشعر، أو المجلات المعنية بالنشر الثقافي، وفي طليعتها مجلدات من مجلة «الرسالة» المصرية كانت في بيتنا، وهي درّة الشرق الثقافي، فتعمقت فيّ الروح، وأصبحت هناك جذور لتطلعاتي، وعرفت أن في أعماقي بذرة شعرية تستحق العناية والاهتمام والتثقف، وقد شجعني والدي، رحمه الله، على خوض التجربة، وكان حريصاً على متابعة ما أكتب، وعلى تزويدي بما يصل إليه من الأعمال الشعرية.

من هنا انطلقت رحلة الحرف إلى عمق الروح، وهنا كان نبع

الحب الكبير... ومعطف الأمل الدافئ... والشاطئ المطلّ على بحر العشق السرمدي المتجاوز...

●●●

تدور المقاهي حول نفسها...
تدور كلماتك حول أنوثتي...
تدور الذكرياتُ حول عنقي...
أهرب من رائحة صوتك...
إلى غرفتي.

●●●

يا هذا الذي احتكر جغرافية العالم...
اتركْ إقليماً صغيراً في فكري...
لا يخضعُ لاستعمارك...
اتركْ قلعةً واحدةً من قلاعي...
لا ترفرفُ فوقها أعلامكْ...

●●●

أيا رجل الكبريتِ والنار
اعجنّي كقطعةِ صلصال...
ارسمني...
هضبةً من الفضّة...
وهضبة من الذهب...
وحبة من اللوز...
وحبة من المانغو...
ارسمني على صورتك...

فأنا لا أعترفُ بأية صورةٍ لي
لا تحملُ توقيعك.

هكذا كان الميلاد الجميل للكلمات، وهكذا كان الانبثاق الإنساني الكبير، حيث البحر المتجسّد في شكل امرأة، والعلو المتمثل في شخصية «شيخة»... والهمة الماثلة في سجايا «دكتورة»... والحلم المرسوم في عيني «شاعرة»... تحوّل رماد الحب الى جمر يتوهج، ثم يتأجج لهباً، وانفجاراً كلياً... هو الغضب والرأفة، والنعومة والإعصار.

٥/٢٢... لم يكن ميلاد فرد، بل كان ميلاد زمن، وميلاد عطاء، وميلاد أمل، وميلاد سعدٍ تمثله «سعاد»... وإشراق صبح تكتشفه «سعاد الصباح» وتؤسس معانيه وفق معطياتها البهيّة النادرة.

شيء من سيرة الحب

خذ الخريطهْ

ورتبْها كما تشاءْ
فالقاراتُ أنتْ
والبحارُ أنتْ
وأنا أنتْ . . .
من اسمك تبدأ جغرافيةُ المكانْ
ومن عينيك تأخذ البحارُ ألوانها
ومن ثغرك يولدُ الليل والنهارْ
ومن إيقاعات صوتك
ومن شرايين يديكْ
أولدُ أنا . . .

لماذا سعاد الصباح تحديداً؟

ألأن لغتها تستفز الذهول ليسكن في عاصفة القلوب؟

ألأنها امرأة نادرة... تحفل بالعصر ويحتفل بها الزمن؟

ألأنها شاعرة ترمي البحار في أحضاننا، ثم تنام... في قلوبنا؟

ألأن لديها من الشفافية... ما يحوّل السراب إلى غدران لا نهائية العذوبة؟

ألأن مسحة الجمال الهادئ في وجهها تحوّل القراءة الإنسانية إلى متعة قصوى؟

ألأنني عندما عرفتها كشاعرة... دخلت بحراً غزيراً من الدهشة؟

ألأنني عندما عرفتها كإنسانة... واجهت الجانب البريء من الحياة؟

ألأنني عندما درستها أيقنت أن امرأة هذا الزمان بألف رجل؟

تلك هي سعاد الصباح... وهذا جزء يسير منها.

يطاردني حبكْ . . .
كسمكةِ قرشٍ لا تشبعْ
يطاردني فوق الماء ، وتحت الماءْ
يختار نقاطَ الضعْف في أنوثتي
ويضربني بلا هواده
على وجهي يضربُني . . .
على صدري يضربني
على ظهري يضربني
على أصابعي يضربني . . .
حتى يَصبغَ دمي
جميع المحيطات باللون الأحمرْ . . .

جاءت في الزمن الجميل... وإليه ذهبت.

زمن العروبة والإخلاص للقضايا، وزمن الحب، والبحر والصحراء، وربيع البراري، ونقاء الناس... قبل عمليات التجميل التي أجرتها المدينة في وجوه الناس، فأصبحوا ليسوا هم...

جاءت في زمن الفن والتكوين البكر والتغزل والنجوم والقمر... قبل أن تغزونا مصابيح الشوارع، وكهرباء المحطات.

وظلت محافظة على ذلك القمر مضيئاً في داخلها، تشع بنورها الجميل، فتقتطف منه وثباتنا... و... ثباتنا...

فاجأتُكَ . . .
تشربُ القهوةَ السوداءَ . .
من نهر عينَيَّ . . .
وتقرأُ فيهما جريدتكَ الصباحيَّه
فصرتُ أرتادُ المقاهي . .

لتشْربَني . . .

وأشتري الصُحُفَ الصباحيَهْ

لتقرأني . . .

منذ العام ١٩٦١، حيث صدر لها «ومضات باكرة»، وكان أول كتاب تؤلفه امرأة خليجية؛ والدكتورة سعاد الصباح تنزع الشوك من ورد في أرواحنا.

هناك حديث لا تسمعه، ولكنك تحسه، وربما تعرف تفاصيله.

إنها مثل رؤيتك شخصاً يصلي بسكينة وهدوء وقدسية، فتعرف ماذا يقول من دون أن تسمع.

أعرف الساكن هنا، لأنني أعرف تماماً حيثية الـ «هنا» هذه.

عرفت الجدار، وتفاصيل الغرفة، واهتمام من مرّ.

هناك حديث لا تود أن تقوله، على أمل أن يقوله الآخرون.

هناك شهادة مجروحة... وهناك شهادة جريحة... وهناك شهادة جارحة. وهي شيء من تزاوج هذه الشهادات.

إنني مجنونة جداً . . .

وأنتمْ عُقلاءْ

وأنا هاربة من جنة العقل

وأنتم حكماءْ

أشهر الصيف لكمْ

فاتركوا لي انقلابات الشتاءْ

●●●

أنا في حالة حبٍ . . . ليس لي منها شفاءْ

وأنا مقهورةٌ في جسدي

كملايين النساءْ

وأنا مشدودةُ الأعصابِ . . .
لو تَنفُخُ في داخل أذني
لتطايرتُ دخاناً في الهواءْ . . .
إنني ضائعةٌ كالسمكِ الضائع في عَرض البحارِ . . .
فمتى تنهي حصاري ؟ . . .
يا الذي خبَأ في معطفه مفتاحَ داري
يا الذي يدخل في كل نهاري .

• • •

هكذا تدخل سعاد الصباح نهار الكلمات، مشرقة بألقها، تستخدم كل لمحات الاستشراف الجميل الندي المتساقط من قلب المحب، أما الصياغة الشعرية فتتميز بالهدوء والرصانة... مع جموح الحب، والاندفاع الكلي للمحبوب، والارتماء التام في فيضان المشاعر.

تستخدم سعاد الصباح كل أدوات الحياة ومفرداتها في صياغة شعرها، فمثل هذا الشعر هو مواكبة ذكية للعصر... مفردات نادرة يتحاشاها الكثير من الشعراء، لكن سعاد الصباح توظفها التوظيف اللائق في كل قصائدها... «سمك»... «معطف»... «دبوس»... وتسمي المدن والشوارع في كثير من شعرها، لأن الشعر عندها انتماء إلى الحياة، وبالتالي انتماء إلى مفردات هذه الحياة، وهي لا تستخدم الجماليات فقط، أو المسميات الجميلة كالبحر والنوارس والسفن، والثلج... بل توظف الكلمات النافرة والغريبة... لتضعها في موضعها الصحيح، مثل «الذباب» عندما تتحدث عن تصفيق ذوي العقول الخاوية للمطالبة بتحجير عقل المرأة أو إلغائه.

ويرحل إلى عمق الإحساس برحابة وهناء وحنو.

ولنأخذ مثلاً قصيدتها الموسومة «الإقامة الدائمة» من ديوان «فتافيت امرأة»، حيث تقول:

وهبتُكَ مفاتيحَ مدينتي
وعيّنتُكَ حاكماً عليها...
وطردتُ جميع المستشارينْ
ونزعتُ من معصمي أساورَ الخوفْ...
وإرهابَ العشيرةْ...
لبستُ ثوبي المشغولَ بخيوط اللّهفَةْ
وتكحّلتُ بنور عينيكْ
وزرعتُ في شعري زهرةَ برتقالٍ
كنتَ أهديتَها إليّ...
وجلستُ على العرش أنتظرْ...
وأطلبُ الإقامةَ الدائمةْ
في مدينةِ صدركْ...
يمر عطركَ في مخيّلتي
كسيفٍ من المعدن
يخترق الجدرانَ... والستائرْ
يخترقُني...
يبعثُر أجزاءَ الزمَنْ
يبعثرُني...
وتتركني أمشي حافيةً على زجاج المرايا...
وترحَلْ...

ثم نحصي كلمات الحياة اليومية التي استخدمتها الشاعرة في هذه القصيدة: مفاتيح، مدينة، حاكم، معصم، أساور، إرهاب، عشيرة، ثوب، كحل، زهرة برتقال، عطر، سيف، زجاج... وغيرها من الكلمات التي تستلها سعاد من صميم الواقع، وتجمعها وتمازج بينها ثم تؤالف، في هذا المقطع الشعري المتدفق بالحب، ومثل هذه الكلمات لو جمعناها جمعاً عادياً خارج نطاق الشعر لما وجدنا رابطاً يربطها، لكن الحس الشعري النادر لدى الشاعرة سعاد الصباح هو الذي جعل المتنافرات تتجاذب، والمتناقضات تتقارب، فيكون هذا الإحساس العظيم والأنيق.

سأذهب معك إلى آخر حدود أنوثتي

محتجة، مبتسمة، مستنكرة، ومُحبّة، تقول سعاد الصباح:

في المقاهي الأوروبية
أقرأ جريدتي وحدي
وفي المقاهي العربية
يقرأ كل الجالسين جريدتي... معي!!

... وكدت أتصل بسعاد الصباح أسألها: هل تقصدينني؟! فلطالما قرأت معها جريدتها، وكم اختلست النظر إلى نظراتها أين تتجه.

كنت مع جوقة الشباب المتحمس للشعر... نبحث عما يغلي في شعرها، عن كلمة مستسلمة تماماً لشهوة الشعر، عن جملة خارجة من فوح جسد، وقصيدة مغلّفة... نفتح قراطيسها لنعثر على قبلة خفية، تم صنعها في زاوية مستحيلة!

لكني أعرف أن سعاد الصباح لم تكن تتضايق ممن يتلصّصون على شعرها... ليقبضوا على مشاهد غير قابلة للعرض، بل إن ذلك ربما يثير ابتسامتها الناعمة الحنونة، لكن ما ضايقها أولئك الذين يحضرون بحبالهم ليقيدوا عقل الأنثى... ثم يضعوها في الثلاجة مع الدجاج المجمد!

صدر عنها كتاب تكريم مقدّم من «المنتدى الثقافي المصري» بإشراف الأستاذ الدكتور عبدالعزيز حجازي، إعداد وتحرير الدكتور محمد يوسف نجم... حمل عنوان «منارة على الخليج... الشاعرة سعاد محمد الصباح»، وذلك في جزأين، أرسل لي مدير «دار سعاد الصباح» الأستاذ محمد خالد قطمة نسخة منه.

ما أجمل سيرة سعاد الصباح، وما أشهى الحديث عنها، وما ألذ الكتابة عن شعرها... وعنها.

تَصفحُ صور ذكرياتها، يترك في فمي طعم «باسكن روبنز»... أو نفحة عطر عابرة مرسلة من أنثى أعماها عمَّن يمشي بجانبها... غرور الجمال!

و« **أجمل ما في الكون... غزال جريح** ».

ولطالما تزينت الرقاب الناعمة بعقود لؤلؤ أنتجته جروح المحار.

ولطالما تمتعنا بجروح سعاد الصباح وهي التي قالت:

« **كل دبوس إذا أدمى بلادي..**

هو في قلبي أنا ».

من يملك شهوة الدبابيس من هذا القلب المضغوط بالعاطفة؟! من يقرأ ملامح وجه مليح تشرَّب الجمال والهدوء إلى أقصى التشبّع.

« **أيها الأبكم... تحرّك** ».

تصرخ في شعرها، بنشوة العشق الأبدية، بفوران نهر الصدر المرتجف، بشقاوة السندريلا التي تراقص أميراً... وتهمس في أذنه:

« **معذرة.. لن أتخلى عن أظافري** ».

وتزيد جرعة الدلع بالقول: «**قل لي لغة... لم تسمعها امرأة قبلي**»!

هذا شعر سعاد الصباح... «شعر بسيط»، كما يقول د. مجدي توفيق: «لا أريد أن أضفي عليه تعقيداً ليس فيه، وإنما أريد أن أفسر البساطة التي أرجعها إلى ما أسميه: موقف البوح».

وهي التي حاربت من أجل أن تتفجر الأنوثة أكثر، وهي التي كنا في أمسياتها نعتبر أن أول قصيدة تلقيها أمامنا... هي لحظة نهوضها من كرسي المتفرجين... ثم اتجاهها إلى منبر الشعر.

تتحرّك أمامنا الآن سعاد:

الخطوة الأولى بيت شعر.

حركة يدها... عصفور مهاجر.

الساعة في معصمها... مشروع قبلة.

قلادة عنقها... ميزان القصائد.

صعودها درجات السلم الصغير المؤدي إلى المنصة.. قصيدة ثائرة.

ثم الصوت، والابتسامة، ورفّة الجفن، وشجن الإلقاء.

ذاك زمن سعاد الصباح... زمان الحنين!

زمان الاكتمال عندما لا تتخرج الأنثى إلا من بين أصابع الحبيب - حسب تعبيرها شعراً - وهي التي يسكن في قلبها جواد عربي أصيل.

هي الشاعرة الأنثى التي تؤكد قول ابن عربي: «كل ما لا يؤنَّث... لا يعوّل عليه».

ومما قال عنها الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين: «سلاح سعاد الصباح الكلمات، الشعر. والمفتاحان المُعتِقان لها من سجونها المتراكمة: الحب والقصيدة».

وقد انقضى أكثر شعرها في منازلة ثلاث سلطات: مقاليد الزمان، قيود المكان، وتقاليد الإنسان.

هي التي عانت من الرجل كثيراً... ذاك النوع الذي قالت عنه:

«أتقدَميٌ في كتابته

ورجعيٌ بنظرته إلى الأنثى»...

وهي التي لوّعت الرجل، الذي قالت عنه: «**أيها اللابسني ثوباً من النار عليك**».

وأعرف سلفاً أن كل أجهزة الإطفاء غير قادرة على إخماد الحرائق التي تضرمها فينا سعاد الصباح.

كم ميكروفون ذاب بين أصابعها، وكم قلب ارتمى على شفة

القصيدة الخارجة من جنة صدرها، وكم تمنينا أن نجد حبيبة تقول مثل قولها:

« أريد أن أذهب معك
إلى آخر الجنون
إلى آخر التحدي
وإلى آخر أنوثتي »

كم تمنينا أن نجد حبيبة نهمس في عينيها:

« مرآتي أنت . . .
فما أجمل وجهي »

إن قول الشاعرة: «**أحملك تسعة أشهر، تسعين شهراً، تسعين سنة، وأخاف أن ألدك حتى لا تضيع مني في الغابة**» هو قول، حسب رأي الدكتور علي سليمان، «غني بالدلالات، يكاد يلخص لنا طبيعة علاقة المرأة بالرجل التي هي دائماً بحالة حمل به، وخوف منه، وخوف عليه».

وهي الأنثى المتفجرة دوماً:

لا يوجد توقيت شتوي لمشاعري
ولا يوجد توقيت صيفي لأشواقي
إن ساعات العالم كلها
تضرب في وقت واحد
عندما يحين موعدي معك
وتسكت في وقت واحد
عندما تأخذ معطفك وتنصرف

وأختار من إجاباتها في «المنارة»... ما يلي:

● **هل تشعرين بالحنين لمرحة الطفولة؟**

– أليس ذلك هو شعور الإنسان الطبيعي، إذ تسلبه مجريات

الحياة البراءة واللهو الجميل عن متاعب دنياه، ويشعر بالأمان لوجوده في رعاية الأبوين.

- **ظاهرة تشعرك بالخجل؟**

- المديح... خارج حدود المعقول.

- **فرصة أتتك ولم تستثمريها؟**

- لا فرص في الحياة الجادة.

- **وأخرى تنتظرينها بشغف؟**

- راحة البال من هموم الآخرين.

- **سر يقلع من مطار قلبك للمرة الأولى؟**

- بكائي عند أستار الكعبة في أول زيارة لأداء العمرة.

- **ملابسك من يختارها لك؟**

- أنا، وأقبل رأي بناتي حين نكون معاً.

- **صورة لا تفارق ذاكرتك؟**

- لقاؤنا الأول: زوجي وجمال عبدالناصر، رحمهما الله... وأنا.

- **متى يصبح الموت ولادة أخرى؟**

- حين ينصف التاريخ صانعيه.

- **متى تحيطين نفسك بأسوار كهربائية؟**

- حين أقوم بتدريس الأولاد.

- **من هو أمير الشعراء العرب الآن؟**

- إنه وحده المتبني... بالأمس واليوم وغداً.

- **ومن هي أميرة الشاعرات العربيات؟**

- لم أسمع بها حتى اليوم.

- **تقولين: «أتحدى فرعون على الأرض وأنضم لحزب الفقراء».**

هل ينعكس هذا القول على أرض الواقع؟ وكيف؟ أم أنه مجرد صورة شعرية جميلة؟

- ليس الشعر بياناً بالالتزام، في أي منحى كان، ولكنه إعلان لرؤية. وبقدر ما يكون هذا الإعلان صادقاً مع النفس، يكون رائعاً في الممارسة. وأحسب، كما يعرفني كثيرون، أنني قريبة جداً جداً من هذا الانحياز للفقراء، على اختلاف درجاتهم وأنواعهم. لقد ترك بوذا كل شيء والتحق بغابة الزهد، وآخرون يتركون الكثير ليكونوا مع سواهم في مواقع الضعف، ويقاتلون من أجل هؤلاء.

● **تقولين: «فرق كبير بيننا... يا سيدي، فأنا الحضارة والطغاة ذكور». أما مظفر النواب فيقول: «فهل يحكم أكثر من كسرى في الليل». ما الفرق بين هذين القولين؟ وما هي الخلفية التي تقف وراء هذا القول؟**

- أنا منحازة إلى المرأة، بكل حالاتها. عاشقة أو معشوقة، قاتلة أو مقتولة، مقهورة أو راضية. أنا معها في صور الحياة الكبيرة ومعانيها العظيمة. وفي صدق أن الذين تحكمهم نهود النساء ليسوا سوى عبيد ولو كانوا أكاسرة وأباطرة. والذين اختاروا الطاعة في الليل لا يليقون بالحب ولا بالمرأة.

● **الرجل في حياة سعاد الصباح... في أي درجة تضعه؟ ومن هو الرجل البصمة في حياتك؟... كيف ترين الرجل؟ بكل إيجابياته وسلبياته؟**

- الرجل في حياة أية امرأة هو الأب والأخ والزوج والحامي والرفيق.

في كل رجل صفة من هذه الصفات، حسب موقعه. وكما أنه يستحيل على الرجل أن يحيا من غير امرأة، كذلك هو حال المرأة. والرجل، شأن المرأة، فيه القوة والضعف، فيه الكرم والبخل، فيه

الشجاعة والجبن. هناك صفات مشتركة كثيرة بيننا، وإن كنت أتمنى

لو ارتقى الرجل إلى مستوى الإيمان بأن عدالة الحياة في كينونتها ذات قطبين متوازيين، وهو ما لم يتحقق عموماً حتى اليوم. أما الرجل في حياتي فقد عرفته مرتين: أباً حنوناً يزرع بذور المحبة والثقافة في قلبي وعقلي، وزوجاً فارساً يزرع عمري بالوعي والتفهم لتوفير كل المناخات لأرتقي علمياً وشعرياً إلى حيث بلغت. وإنني أعترف، كما أفعل دائماً، أنه لولا الشيخ عبدالله مبارك الصباح لضاع من عمري الكثير هدراً، فأنا مدينة له كزوج وكرفيق وكصديق... وسأبقى.

●●●

حوار... يبدأ ولا ينتهي

الحديث مع سعاد الصباح... دنيا أخرى، أمل آخر.. ومجال

من الروعة لا يعرف الحدود...

الحديث يتنوع، مع لوحاتها، مع شعرها، مع حبها للفن والحياة، مع نتاجها، عطائها الكبير... وحنانها الأخاذ... جلست معها خلال شتاء ٢٠٠٤ فكانت هذه الأسئلة والأجوبة:

• عدتِ من باريس محمّلة بمشاعر التكريم والتقدير لتجربتك، وذلك من خلال المظاهرة الثقافية الكبيرة التي أقيمت لكِ هناك. بماذا يحس الأديب لحظة تكريمه عالمياً، وماذا عن تكريمه بين أهله في وطنه؟

– التكريم، أياً كان الداعي إليه وفي الوطن أو خارجه، هو رمز للوفاء، باعتباره الأسمى في الحياة. إن الوفاء يجسّد كل القيم الجميلة من تفضيل الآخر على الذات إلى الشجاعة، فالكرم، فالعطاء. لذلك كان التكريم للإنسان حياً هو الذروة فيما يتلقى. لقد منّ الله عليّ بالتكريم مرات، في الوطن وخارجه، ولكن يبقى للتكريم في العواصم الأجنبية معنى مضافاً، إذ إنني أعتبره تكريماً للدولة التي أتشرف بحمل اسمها، وهو تكريم للإبداع يفتح للمكرّم أفقاً واسعاً من الاحتفال بإبداعه مما يشجعه على بذل المزيد من الجهد ليكون مستحقاً رايات التكريم التي ترتفع فوق هامته.

• في الوقت الذي شنّت فيه حملة ضد حجاب المسلمات في فرنسا، كنتِ هناك بحجابك، بشموخك، هل كانت تلك رسالة صامتة منك، ومؤازرة لحرية المرأة العربية المسلمة؟

– إن ارتدائي الحجاب قرار إيماني خاص بي ولا أريد له أن يتحول إلى شعار سياسي.

• انطلاقاً من ذلك أسألك عن دور الشاعر الأديب في تطوير

مجتمعه، بالشعر، وبالقول، وبالعمل... هل تؤمنين به، وهل هو موجود على أرض الواقع؟

- للشاعر أو الأديب أو الرسام رسالة تجاه مجتمعه، وحين يصبح الشعر كتابة مفرغة من المواقف، حين يستدعي الأمر إعلانها، فإن الشعر يشبه الجثة المحنّطة. الشاعر منارة عصره ويجب أن يعلي من قدر الكلمة ويوظّفها في إضاءة طريق أمته، بالطبع دون الاعتداء على الجمالية الشعرية في سبيل تسجيل الموقف. روعة الشعر، صدقه، كذلك أن يظل شعراً فلا يتحول إلى نسخة مموسقة عن خطاب سياسي أو اجتماعي. ليس مقبولاً أبداً هذا الانفصال بين الشعر والحياة لأن الشاعر هو الصوت المشرق بالأحلام وبالجمال وبالرؤى وبالتطلعات نحو عالم أكثر جمالاً وصدقاً وبراءة.

● د. سعاد، ألم يتعبك هذا النضال الطويل بالكلمة... ألم تشعري بحاجة إلى الراحة قليلاً، ألا تقولين لنفسكِ قلت ما عندي... وكفى؟!

- عندما يكون وجودك كله متربطاً بغاية، يكون الحديث عن التعب والراحة ترفاً لا أحتمله... منذ وعيت وأنا أحس بأن عليّ واجباً تجاه الآخر، وقد جسدت إيماني هذا بالقول وبالفعل، دونما حاجة إلى سرد ما هو معروف ومعلن.

لم أتعب من حمل الراية ولا أحسب أنني بعون الله سوف أفعل، لأن المؤمنين بأنهم حملة رسالة كبيرة لا يتعبون لأن في التعب راحتهم الحقيقية.

ثم إن الانكفاء عن حمل هذه الرسالة إنما يعني تفضيلاً للذات على حساب المجتمع وذلك ما أدعو الله ألا يضعني في زاويته المغلقة.

● في أمسيتك الأخيرة في مهرجان «هلا فبراير»... كنت أتوقع أن حماسك قلّ، واندفاعك في الشعر لم يعد كالسابق، لكني شاهدت نيرانك وقد تأججت أكثر، صوتك أكثر حرارة، التحامك بقصيدتك مازال شديداً... كيف حافظتِ على هذه الحالة، كيف استطعتِ تجديدها؟

- عندما تؤمن أن دورك في الحياة مستمر وأن صوتك يهم المجتمع الذي تخاطب، عندئذ تكون لك هذه الحيوية النابعة من الداخل المشتعل. وإن الثقة التي يمنحك إياها جمهورك تجعل استجابتك في حجم الصورة التي يرسمها لك هذا الجمهور في مخيلته ويعبّر عنها بحضوره وبتجاوبه مع الشعر.

لقد خلقت السنون لي صورة ثابتة في ضمير عشّاق شعري، وإنني حريصة دائماً على أن أجعل هذه الصورة أكثر إشراقاً بلقائهم وبتجاوبهم الذي يشعل روحي بالمحبة.

● تكرّمين الأدباء الشباب من خلال مسابقة سعاد الصباح السنوية، ومسابقة الشيخ عبدالله المبارك للإبداع العلمي، وتكرمين الرواد وكبار الأدباء... هذا التواصل ما بين جيل أعطى وجيل مقبل على العطاء... ماذا يعطيك؟

- هناك فارق بين الغايات فيما أقدّم. بالنسبة لمسابقات الشيخ عبدالله المبارك للإبداع العلمي ومسابقات سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي، كانت الغاية ولاتزال فتح الأبواب المغلقة أمام المواهب الشابة التي لم تجد فرصتها للظهور وللانتشار في عالم الكلمة: بحثاً أو إبداعاً. هنا تتحقق الغاية في استمرار هذه المسابقات منذ العام ١٩٨٨ وحتى اليوم، دون توقف مع اتساع آفاق الاتصال بيننا وبين جيل الإبداع الجديد عبر وسائل الاتصال

الحديثة. لقد هيأنا الفرص أمام عشرات الألوف من الباحثين والشعراء ومبدعي الرواية والقصص القصيرة والمسرحيات لكي يغنوا ميدان الإبداع بما يقدمون. ونحن من جانبنا نبذل أصدق الجهد دون كلل ليكون العدل هو مقياس الاختيار في تحديد الفائزات والفائزين بجوائز هذه المسابقات، فضلاً عن طباعة الأعمال الفائزة بالمراكز الأولى وتقديم أصحابها الموهوبين إلى الجمهور.

أما بالنسبة لتكريم رواد الثقافة العربية الأحياء، وهي مبادرة أطلقتها منذ العام ١٩٩٥، فإنها تجسد الوفاء، وكما قلت قبلاً إنه عندي ذروة القيم الإنسانية. ليس هناك ما هو أروع ولا أكثر نبلاً من أن تكون وفياً لمن أعطاك، سواء في حياتك العامة أو في حياتك الخاصة. لذلك فعندما دعوت إلى تكريم رواد الثقافة العربية وهم أحياء إنما فعلت ذلك تعبيراً عن إيماني العميق الذي لا يتزعزع لأداء هذا الدور كما يجب، فإنه من واجب المؤمنين أن يتصدوا لهذه المهمة النبيلة وأن يبادروا إلى العمل بموجب قانونها. وإنني أحمد الله كثيراً الذي أتاح لي تكريم نخبة مختارة من المبدعين العرب، تشرفت بتجسيد وفاء الأمة لهم، وهم حتى اليوم: الأستاذ عبدالعزيز حسين من الكويت، الشاعر ابراهيم العريض من البحرين، الشاعر نزار قباني من سورية، الدكتور ثروت عكاشة من مصر، الشاعر الأمير عبدالله الفيصل من السعودية والأديب والباحث عبدالكريم غلاّب من المغرب.

وعندما أذهب إلى حفل لتكريم المبدع أشعر أن الدنيا لاتزال بألف خير، وأننا مهما حاولنا أن نوفي المبدعين حقهم فإننا عاجزون، ولكن يبقى أن هذا التكريم هو إضاءة لشمعة وهو خير ألف مرة من لعن الظلام.

● يشكو الأديب من التجاهل، مهما كتب وأبدع، تظل أصابعه مثل شموع تذوب لتنير الدرب للآخرين، ثم تنتهي دون لمسة شكر؟

– ذلك ليس تصوري، على الأقل هناك تقصير في رعاية الأدباء تتحمل مسؤوليته الدولة، كل دولة، تجاه أدبائها وتتحمله المؤسسات الرسمية الثقافية أو الروابط الأدبية، والتي قد نجد لها العذر في أنها لا تملك ما يكفي لأداء واجبها تجاه الأدباء. لكن يجب ألا نيأس من أمرين: الأول هو أن الدول بدأت توسع من دائرة حفاوتها واهتمامها بالأديب، والثاني أن الناس تعطي الأديب الحقيقي ما هو أغلى من الذهب والفضة، تعطيه محبة تدوم وتدوم فتكبر في أعماقه مشاعل الحياة والعطاء.

● بقيت سعاد الصباح وحيدة تدافع عن الفصحى، وتدفع بها إلى الأغنية... بصوت ماجدة الرومي مرة، وبصوت سميرة سعيد مرة، وها أنت تزيّنين حنجرة الفنانة «نوال» بقصيدة جديدة لشريطها الجديد... لماذا قلّ حماس الفنان للقصيدة الفصحى... وما دور الشاعر في خضم ذلك؟

– هنالك أكثر من صوت شعري دفع ويدفع بالقصيدة إلى حنجرة المنشد أو الطرب. وقد جاء وقت كانت فيه القصيدة هي الأغنية السائدة ولكن تبدل المناخ النفسي والثقافي في المجتمعات، لابد أن ينعكس على المزاج الفني أيضاً. من هنا سقطت الأغنية العربية سقوطها المريع منذ عهد «الطشت قال ليّ» إلى «كلّمني وأنت واقف»! هناك أغنيات تثير الغثيان وبعضها يدفعك إلى خصومة معلنة مع أدوات التواصل كالإذاعة والتلفزيون. ولكن، دعني أسأل: أليس واقعنا السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي هو البؤرة التي تولد فيها الأغنية شعراً وموسيقى وصوتاً؟ إن عصر الانحطاط

العربي يخيّم على كل شيء، ومنه الأغنية، حتى بات الشاعر يحس أن لا مكان للقصيدة الجميلة في الحنجرة، وأن مكانها الوحيد هو ذاكرة الإنسان، لذلك أخذ الشعر يبتعد عن الأغنية بقدر ما ابتعد الملحن والمطرب عنه، فانفتح الباب واسعاً أمام السقوط في أحابيل الأغنية الغثة.

● كثير من المشاريع الثقافية أصيبت بهزيمة كبيرة... المجلات الثقافية المتخصصة ماتت فوق الأرفف، كتب السحر والطبخ في تزايد مستمر... ماذا علينا أن نفعل؟

- ليس علينا أن نفعل شيئاً غير الاستمرار في الإبداع، إن تراجع قيمة الإبداع الشعري والروائي والقصصي وكل أنواع العطاء مرده إلى حالة الأمة المتردية، وأزيد على ذلك أن مناهج التعليم عندنا عاجزة عن خلق القارئ الواعي والمدرك لأهمية الكلمة الخلاقة. كما أن برامج التلفزيون العربية مسؤولة عن تعميم «التفاهة الثقافية» بانصرافها إلى ما يسلي فقط دون حساب لما يملأ النفس ويرفع من سوية الإنسان الثقافية.

● مع هذه الأهمية الاجتماعية والأدبية... لم تطمحي لمنصب سياسي تكونين فيه أكثر فاعلية ونشاطاً... أم اكتفيتِ بالكلمة، أو وضعتِ طموحك ولديك مبارك ومحمد؟

- لم يخطر في البال أن أسعى أو أتمنى المنصب السياسي، فالموقع الذي يضعني فيه الشعر والثقافة يرقى إلى ما يشبه الحلم الوردي. أما أن أكون أكثر فاعلية ونشاطاً فالحمد لله أنني لا أشكو من عجز في أداء الواجبات الملقاة على عاتقي، والتي لا تترك لي مجالاً للمزيد من النشاطات، بل إنني أعتذر، صادقة عن عدم قدرتي على تلبية الدعوات الموجّهة إليّ للمشاركة في

والاجتماعية.

أما ولداي، محمد ومبارك حفظهما الله، فلهما في حياتهما الشأن الذي يختاران، وكلاهما قادر على تحديد ما يريد ورسم معالم طريقه.

• تُرجمت قصائدك إلى كثير من اللغات العالمية... كيف تفاعل المتلقي مع نتاجك الأدبي في هذه البلدان... وهل تشعرين أن لغتك العربية لا عوض عنها مهما توسعت الترجمة؟

– من الرسائل التي وصلتني، وبعضها تكرمت سفاراتنا في الخارج بنقل بعضها منشوراً في صحف الدول التي تصدر فيها الترجمات، من هذه الرسائل ألمس تجاوباً واسعاً مع شعري المترجم، وقد حدا ذلك بالبعض إلى اختياره عنواناً لدراسات جامعية قدمت لنيل شهادة الدكتوراه، كما أن أكثر من اتحاد أدبي وجه إليّ الدعوة لإحياء أمسيات شعرية وإجراء لقاءات مع مثقفيه، ولم أتمكن حتى اليوم من تلبية هذه الدعوات الكريمة.

• في ظل تزايد المسؤولية على ولديك محمد ومبارك... ما دورك... وما مشاعرك؟

– لا دور لي في هذا الوضع، لقد خرجا من رحم الأمومة إلى رحم الوطن الكبير وهما صاحبا قراراتهما فيه.

• حدثيني عن ديوانك المقبل الذي تجهزين لطباعته؟

– يضم الديوان الجديد مجموعة من القصائد التي نشرت مؤخراً وفيها ما يتعرض لقضايا المرأة والحرية وشجن رحيل الصديق والزوج الكبير، وتتصل كلها بصوت واحد معبّر عن الذات والوطن.

• يطالبك كثيرون بكتابة مذكراتك لرصد مرحلة مهمة من حياة وطن ومجتمع وأمة... لماذا لا تفعلين؟

– لا أجد ما يبرر تسجيل هذه المذكرات، فمسيرة الحياة باستمرارها تضيف كل يوم المزيد إلى الأوراق، هذا مع أن بعض ما يمكن اعتباره مذكرات أنشره كرسائل مفتوحة معبّرة عن حياتي.

• تقيمين أمسيات متفرقة لمدارس وزارة التربية... ماذا تشعرين وأنتِ تلقين شعرك لطالبات مازلن في سن قابل للتأثر بما يدور حولهن؟

– ليس عندي من ساعة شعر أطيب من تلك التي أقضيها مع طالبات وطلاب المدارس.

هنا تحس بأن من يستمع إليك إنما يفعل لأنه يحب الشعر وحده ويرغب في لقاء الشاعر نفسه، خاصة إذا لم يكن قد أتيح له لقاؤه من قبل، وقد تزايدت الدعوات الموجهة إليّ لإحياء أصبوحة أو أمسية شعرية في المدارس الرسمية والخاصة ولم أعتذر عن حضور أي منها إلا حين أكون على سفر. وسط الجمهور الطلابي أشعر أنني عدت طالبة تتحدث إلى رفيقاتها وأنني أجلس على الكرسي المدرسي من جديد بعد أربعين عاماً على مفارقته. في هذا الوسط الطلابي أتنفس هواء نقياً لم يلوثه التأويل المسبق أو الخصومة مع الشعر. في هذا الوسط أستعيد براءتي من براءة البراعم وأحس أنني أنشد لآذان مدوزنة على تلقي الشعر بعفوية وبحماسة وبطهر لا نظير له.

• لا تحرصين على كتابة المقال... إلا لحظة حدث يتطلب ذلك، ونتشوق لقراءة أفكارك حول الوضع الثقافي، وتجربة القصيدة العربية، وقراءاتك... لماذا لا تتواصلين في هذا الجانب؟

- المشكلة الأساس هي أن اليوم كاملاً محصور في أربع

وعشرين ساعة فقط، لذلك فإن الوقت لا يتسع لجميع النشاطات الثقافية والاجتماعية والعملية التي تشغلني فضلاً عن أن اهتمامي بالأحفاد قد بدأ يشكل واقعاً يسرق الوقت مني ويملؤني بسعادته فيشغلني عن الكثير من النشاطات الأخرى. إن هذه العلاقة اليومية بيني وبين الحفدة هي الأمومة الثانية لي ولهم جميعاً، بناتاً وصبية يجعلون أيامي تمضي إلى الأمل والفرح في كل ساعة عمر، ولا تنس أنني أصحب البعض منهم معي حين أسافر مما يجعلني أسيرة هذه الأمومة الرائعة من جديد.

• علاقة المحبة والصداقة بينك وبين أحفادك عبدالله وفضيلة وسعاد مثلاً، كيف تنشأ، على أي شكل تقوم، وما شكل إحساسك فيها؟

- لا أعرف إن كانت هناك أشكال متعددة لمثل هذه العلاقات السامية. أحسّها واحدة متجسدة في محبة يومية تعيد إليّ الشعور الرائع بالأمومة المتجددة.

• بيتك الجميل مليء باللوحات. في كل مكان... لوحات التعبير والرمز، ولوحات الشخوص... ما شكل التعايش بينك وبينها؟

- تكاد بعض هذه اللوحات أن تنطق بالحديث إليّ، كما يخطر لي حين أتوقف أمامها أن أخاطب الزهرة أو الوجه أو الطائر الذي أجده كامناً في جماليته عبرها.

عندما تحررت الكويت ودخلت أبوابها بسلام، وفي أول يوم رمضاني، وكانت السماء حمراء، والنهار ضرير في عز الظهر، شعرت أن ميلادي كان في ذلك الوقت الذي «طلع الورد فيه من

تحت الخراب وأمي الكويت تأخذني بالأحضان بعد شهور سبعة من التشرد، كنا جيشاً من الأيتام وكنا حمائم قد نسيت مبادئ الكلام... وكنا مسافرين ضيّعوا خارطة الشهور والأيام».

● يقال إن التجارة بالقضايا أصبحت أكثر ربحاً مالياً من المتاجرة بالبضائع، هل هذا صحيح؟

- اسأل الذين يتاجرون...

أسئلة وفاكسات

● **متى تشعرين بالراحة؟**

– في الليل، عندما أضع رأسي على وسادتي وأنا مرتاحة الضمير.

● **متى ينتابكِ الإحساس بالتعب؟**

– بعد مشاهدة الأخبار على شاشة التلفزيون.

● **بماذا تنصحين الشعراء الجدد؟**

– على الشباب أن يقرأ وأن يغوص في التراث الشعري ويتعرف على مكنوناته، عليه أن يفتح نافذة يطل منها على عالم الأدب والشعر عند الشعوب الأخرى، فالقراءة تبدأ من ديوان الشعر العربي الأول إلى الشعر المهجري وصولاً إلى الشعر الحديث، فالذي يميز شاعراً عن آخر هو ثقافته قبل كل شيء.

● **ماذا تقولين عن انتشار ظاهرة الشعر الشعبي؟**

– طبيعية، فلكل مبدع صوته الذي يختار.

● **رحل نزار وبلند والبردوني وفدوى طوقان، هل رحل معهم الزمن الجميل؟**

– الزمن الجميل داخلنا لم يرحل والشعر الجميل أبقى حتى لو رحل صاحبه أو تغير الزمن، فالشعر يظل زاهياً متجدداً رغم مرور السنين، شاهداً على زمن جميل مضى.

● **متى تضحكين من الحياة؟**

– عندما أشعر بتفاهتها.

● **متى تضحكين مع الحياة؟**

– عندما تتذاكى على إنسان قوي سلاحه الصبر والعزيمة والتصميم.

● **متى شعرتِ بالندم؟**

- لا أندم على ما أفعل ولكن على ما يفعله الآخرون.

• كيف تقضين يومك؟

- العائلة أولاً على رأس قائمة يومي وباقي الوقت بين الواجبات الاجتماعية والقراءة والكتابة والرسم.

• تمشياً مع متطلبات العصر، هل أصبح الشعر وجبة سريعة؟

- تفوّق الشعر على سرعة العصر!

• ماذا تقولين عن «الفيديو كليب» الحالي؟

- سوق نخاسة لبيع المرأة.

• نوال تغني لك قصيدة جديدة بالفصحى، ماذا يعني التقاء صوتك الشعري بصوتها؟

- صوتها رائع، أداؤها ممتاز، أنا واثقة من أن نوال سوف تكتب القصيدة مرة أخرى بصوتها وتطلقها عصفورة حب في أرجاء الوطن العربي.

• أغنياتك بالفصحى، وبالعامية، أيهما الأحب إلى قلبك؟

- لا أميّز بين القصائد، كلها أولادي.

• متى يرتاح قلبك لإنسان ما؟

- عندما ألمس فيه الصدق بعيداً عن النفاق والمنفعة الشخصية.

• اسم تحبينه جداً؟

- عبدالله.

• معنى تحبينه جداً؟

- الوفاء.

• ظاهرة لا تحبينها؟

- المظاهر الفارغة.

● **قناة تفضلين مشاهدتها وبرنامج يعجبك؟**

- في أكثر من محطة برامج حوارية وثقافية، أحترم فأشاهد.

● **«بانت سعاد فقلبي اليوم متبول»، قالها شاعر عن سعاد العصر القديم، فماذا يقول الشعراء عنك؟**

- اسأل الشعراء.

● **«سعاد» هل هو نابع من السعادة الشخصية أم من الرغبة في إسعاد الآخرين؟**

- السعادة الداخلية هي شمس تشع وتوزّع محبتها على الآخرين.

● **«إن الإنسان بلا حزن ذكرى إنسان»... قالها نزار، هل تنطبق عليك؟**

- الحزن هو الوردة السوداء التي تجمّل أيامنا.

● **«ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء»... لمن تقولينها؟**

- لسلاطين الأمة العربية ومثقفيها... رحمة بالإنسان العربي.

● **وراء كل عظيم امرأة، لماذا لا تكون بجانبه؟**

- بل وراء كل امرأة ناجحة رجل عظيم واثق من نفسه.

● **متى يصبح الفضاء أضيق من خرم الإبرة؟**

- عندما تتكسر القيم.

● **أمازلت «امرأة بلا سواحل» أم عدت «فتافيت امرأة»؟**

- لا هذه ولا تلك، أنا امرأة حدودها ملاعب الشمس.

قلوب بيضاء... في القصر الأبيض

أحبَ أهل نجـدٍ على شـان أهل بيت

وأحبَ أهل بيتٍ على شـان مـخلوق!

تعجز عن تعبير الحب... عندما يكون الحب طافحاً، أشبه بفيضان يجعل قلبك مكتوف الأوردة أمام كمية المودة الثقيلة على كاهله...

أنت أسعد مخلوق بهذه المشاعر، عندما ترى روحك أشبه بمارد محبوس في قمقم... مرمي في بحر متلاطم...

البحر هو مشاعرك، القمقم كلماتك، والمارد حيرتك في التعبير...

هكذا أحس... عندما أدخل «القصر الأبيض»...

القصر الزاخر بكل التاريخ الجميل، والانجازات، والحب الكبير.

مبارك الكبير

«أسد الجزيرة»

الشيخ مبارك الكبير...

لوحة... في واجهة مدخل القصر الأبيض...

لكنها ليست لوحة فقط...

بل شموخ مؤطر بقلوب ممطرة...

موقف جليل... ووقفة جميلة... مليئة بالعز، تمتد من ذلك الزمن... إلى زمن «صقر الخليج» الشيخ عبدالله المبارك، حيث العطاء الإنساني والفكري الكبير... للوطن، للبشر، للأسرة، ليبقى خالداً في الذاكرة، ذاكرة كل من عرفه... عرفه عن قرب، أو عرفه من خلال الوعي بالإنجازات الكبيرة التي لا يجيدها إلا الكبار...

أم مبارك

من عمق الكلمة تأتي... لتذهب إلى عمق القلب.

حمامة سلام ترفرف في أجواء القصر الأبيض، تزين الدنيا بابتسامتها، رقة صوتها النابع من رقة قلب.

من يعرف سعاد الصباح... يعرف ماذا يعني السلام الداخلي، والصفاء الإنساني.

من حسن حظك أن تكون سجين أحاسيسها الجميلة.

هي شجرة الرقي، وجنة العطاء، ونهر الإحساس، وفضاء الإحسان...

هي هي...

سعاد... لا تصفها إلا بها.

محمد

الهدوء... بأسمى معانيه.

أخذ من والدته السكينة والسلام؛

ومن والده... خوض العمل مهما كانت تبعاته.

يتعب لأجل الناس...

طموح، أنيق... ومثقف.

مسؤول جهاز مهم في الدولة، يتعلق بالناس. فالتعلق بالناس هو قدر هذه العائلة التي تجتمع قلوبها البيضاء في القصر الأبيض.

فهنيئاً لمن عرفهم... ومن أحبّهم.

مبارك

كتلة من الطموح... و«الهيبة»...

نشاط مشتعل...

في الاقتصاد... هو خبير، يعرف ماذا يريد الشباب، وماذا يحتاج المستقبل.

يقبل وجهة النظر الأخرى، وإن خالفت وجهة نظره...

اجتماعي... ومثقف...

يعرف السوق التجاري، كما يعرف الأدب العالمي...

ارتباطاته عالمية... لأنه شعلة حياة، ينير الدرب لأصدقائه ومعارفه.

رجل مهم... مازال قيد الاستثمار.

أخذ من صلابة والده الكثير... ومن والدته أخذ محبة الأخذ بأيدي الناس.

بيبي

أم عبدالله...

حرم الشيخ محمد العبدالله المبارك...

ابنة شهيد الكويت فهد الأحمد...

وشقيقة الشخصية الفذة أحمد الفهد...

أنيقة، هادئة، مسالمة، مثقفة، مليئة بالمرح، والانتماء إلى الحياة.

تحب الشعر والحياة والجمال... وأولادها،

وجدَّتهم سعاد الصباح...

بيتها في قلبها... كما هو في قلب «أبو عبدالله».

شيماء

تلمح ملامح السلام والبشرُ من أول مشاهدة.

البراءة في أبهى صورها.

هي «سعاد الصباح» أخرى...

زهرة من زهور الزمن الجميل، وفتاة تواكب الحياة والمستقبل... و«شيخة» تعرف أن أهم معاني هذه المكانة العطاء الإنساني...

كيف لا، وهي تترعرع وسط هذا الحب الكبير...

أمنية

أم سعاد... الابنة والأم معاً

حلم «سعاد الصباح» الجميل... ديوان شعرها الأثير، وابنتها التي أصبحت صديقتها.

الشيخة أمنية... هي أجمل اختصار لروعة الإنسان، الأم، الشيخة، والابنة الوفية، الصامتة... والصادقة عندما تنطق. وهي البهاء بأسمى أشكاله...

آخرون

كتبت عمّن عرفتهم عن قرب، أو التقيت بهم على الأقل...

كتبت بنبع قلب يتدفق بدعاء حقيقي أن يحفظ الله هذه العائلة الكريمة... يحفظها لأنفسها وللناس، وهناك آخرون... لهم التقدير، لكن الحروف مازالت عاجزة عن ملامسة الإحساس الحقيقي النابض هنا...

طيوف الغمد في «آخر السيوف»
مرثية الوالد.. والولد

تظل هذه القصيدة التي كتبتها سعاد الصباح في رثاء زوجها

الراحل الشيخ عبدالله المبارك، علامة فارقة في شعر القرن العشرين، من حيث جودتها وسبكها، وقوة ألفاظها، وما تحويه من صور بلاغية وكنايات، وإسقاطات، ومرارة نقد، وثبات عزم وحزن أصيل... من امرأة شامخة على رجل كبير ودّع الحياة في ظروف عصيبة كانت تمر بها بلاده...

«آخر السيوف» هو عنوان القصيدة، الذي يوحي بانتهاء المعركة... وصلابة السيف الأخير، وإسدال الستار على فصل من فصول الحياة.

تداخلت أحاسيس الوطن، بأحاسيس الحبيبة، وشجون العرب... بشجون الزوجة، وآلام الحزن... بآلام الفقد، كما اختلطت مشاعر العشق بتواشيح الوداع، وكذلك مرارة الغياب... مع حلاوة الذكريات، ودفء الزوج... مع برودة اغتراب الرحيل.

تنشد سعاد الصباح هذه القصيدة مسجلة هذا الرثاء الشامخ والأصيل، عبر صياغة شعرية مذهلة، بمقدرة فذة على الكتابة، والتعبير، وبلوغ أقصى درجات الإحساس، وأجمل صور التشبيه.

كيف استطاعت سعاد الصباح أن تبلغ هذا المبلغ من الشعر... لولا أنها تعرف ماذا يعني الشعر، وكيف ترص الكلمات إلى بعضها بتناسق أخاذ، والتئام مرهف؟!

كيف تجاوزت حواجز الصنعة الشعرية، لتصل ذروة الصدق العاطفي، لولا أنها محبة نادرة، وعاشقة فريدة، وشاعرة جديرة بالشعر؟

كيف قدرت على هذا التصوير... لولا أنها ترى بعين قلبها، وتستكشف ببصيرة إحساسها، وتقول بنبض حزنها العريق؟

كيف مضت تذرع طرقات الجحيم اللغوي بكل هذا الصمود، وهذه الفصاحة، وتلك العبارات والعبرات البليغة، لولا أنها

استجمعت كل إحساسها بالوطن، بالذات، بالآخر... وبالراحل الكبير الذي لن يملأ مكانه أحد أبداً؟

قصيدة نادرة، كتبتها شاعرة مميزة، تستحق القراءة المتكررة، والتمحيص الدقيق في ما وراء الكلمات والجمل، والجماليات المدسوسة في قلب هذا الشعر الذي سيظل خالداً من خلال هذه الرثائية... رثاء رجل، ورثاء رحيل، ورثاء أمة، ورثاء قيم... وتطلع إلى منارة شاهقة، ستظل شاهد إثبات على تغيّر كثيف في المرحلة... فيما يخص الإنسان، وفيما يخص الأرض.

« ها أنت ترجع مثل سيف متعب » .

شطر بيت، هو جملة شعرية لا تقدّم - فقط - لما سيأتي، بقدر ما هي اختصار لزمن طويل مرّ.

« ها أنت » ... إشارة إلى حديث تم نقاشه سابقاً، ومشاهد كانت الشاعرة شاهدة عليها، ورجل ذهب، وغاب، وها هو يعود الآن... كحضور يوحي بغياب، وغياب كان كثيف الحضور.

« ترجع » ... عودة كان الذهاب فيها زاخراً بالآمال، مزدحماً بالتفاصيل، ما بين انتظار وانتصار وانكسار.

« مثل سيفٍ متعبٍ »... لكثرة ما خاض من المعارك، ولضراوة الحروب التي خاضها، لكن السيف يبقى سيفاً رغم كل الظروف.

« لتنام في قلب الكويت أخيراً » . . .

وليس من عادة السيف أن ينام، فهو ينغرس، أو يقطع، أو يكسر... لكنه الآن ينام، لأنه عائد متعب... وعودته ليست عودة إلى حرب جديدة، بل إلى راحة... في قلب الوطن.

ينام السيف في القلب... في علاقة جديدة، لم تكن معتادة في الشعر، فالسيف والقلب ضدان... يجتمعان الآن، في حالة حب واحتضان.

وصف آخر.... لرجل عاش في الأعالي، واعتاد الشموخ، والإباء، لكنه الآن مضرج بالأسى، لأنه كان شاهداً على زمن رديء... ورغم ذلك لم يتخلّ عن صفة الصبر التي لازمته وأتعبته.

من الصعب على السيف، والنسر الانكسار... لكن الضربة عندما تأتي من الجانب الذي كان يفترض أن يكون مصدر الأمان... يحدث الكسر الشديد والمحزن.

« **كسرتك أنباء الكويت** » . . . فالنبأ العظيم يحدث أثره العظيم على الجبل الأشمّ... الذي من النادر أن يتم قهر شموخه... مع ذلك يحدث المصاب اللا متوقّع!

وها هو الموت يأتي في الوقت المناسب. فالأبطال الكبار ذوو الشموخ، لا تتناسب حياتهم مع الأوضاع الرديئة وأزمنة الخيانة والغدر، لذلك يكون الموت هو البطل المنقذ، وحالة الغياب المفترضة:

ما كان يمكن أن تعيش لكي ترى
باب العرين مخلّعاً . . . مكسورا

وتتوالى أحزان سعاد الصباح، يتواصل حديث النفس، ومعاتبة الزمن، وتعنيف شجرة الحياة المصابة بعقم في إنجاب الرجال... والأمان...

يتوالى وصفها الدقيق والجميل، والمفجع، لهذا المشهد الأخير... للسيف الأخير... وتبلغ المرارة ذروتها...

صعبٌ على الأحرار أن يستسلموا
قدر الكبير بأن يظل كبيرا

للهمّة ثمن باهظ، وللشموخ ثمن، ولاختيار المجد إرهاصات... فالكبار لابد أن يظلوا كباراً، وحالة الاستسلام لا تطولهم أبداً... لكن ما يتسرب إلى قلوبهم هو الحزن الشديد.

ها هو فارس الفرسان يترجل أخيراً بعد عمر طويل من المعارك. طويل ليس بقياس الزمن، ولكنه طويل بقياس الإنجاز.

يا فارس الفرسان يا ابن مبارك
يا من حميت مداخلاً وثغورا
شربت خيولك دمعها وصهيلها
كيف الخيول تموت ؟ لا تفسيرا

ليس هو استفهام بقصد الاستنكار، فالشاعرة راضية بالقدر، مستسلمة لأمر رب العباد، لكنه استفهام بقصد الاستغراب، والاستغراق في تجميد اللحظة التي يتم فيها مشهد الفراق الطويل... واستفهام يوحي بصعوبة وصف موت الخيول... فلا تفسير يناسب حالة خيول يموت فيها الصهيل، كيف الخيول تموت... وتحرمها الظروف من ذرف دموع الألم على نهاية معركة، كان الانكسار فيها مرادفاً للنصر!

تتواصل رحلة الشاعرة في بث لوعتها على أحداث التاريخ الذي زوّره «الإخوة الأعداء»... وهي تخاطب رجلاً راحلاً، وسيفاً فريداً... كأنما تخاطب نفسها، وتسرد أشكال المتناقضات ما بين أمجاد غابرة، وأفعال غادرة، وتدمير أليم كان دافعه الحماقة والغرور...

ثم تتوقف الشاعرة عن السرد، لأن الأهوال أكثر من أن توصف، والشجون كثيرة، ولا مجال إلا لقطع الحديث عن هذه اللحظة، والتسليم بقضاء الله...

يا سيّدي... إن الشجون كثيرةٌ
فاذهب لربك راضياً مبرورا

وتتعالى نبرة الحزن لتبلغ أوجها، وتتصاعد معها اللغة

الشعرية لتصل إلى ذروة الجمال الفني، وبراعة الوصف، فتكتمل

القصيدة بهذا الشكل النادر من التصوير، والألم، ومعادلة التاريخ ومعاملته... تتوقف هنا سعاد الصباح لتعطي كل بيت زخمه الأدبي والفني، كل ما في روحها من حسرة ومن قدرة بديعة على اختصار الكلام الطويل في شطر بيت، يوحي بكلام لا ينتهي، وجمال لا يوصف. فهل كان التاريخ هنا مجرد قشور تتفتت بين الأصابع التي لطالما صاغت الجمال، وعيون أحبت هذا التاريخ وانتمت إليه... وإلى أين يذهب الفنان في هذه اللحظة؟... ماذا تقول امرأة كتبت من قبل ديوان «فتافيت امرأة»... وهي الآن كامرأة نادرة، وشاعرة مميزة، تخاطب زوجاً نادراً، وشيخاً مميزاً؟

يتفتت التاريخ بين أصابعي
وأشاهد الوطن الجميل كسيرا

وبعد أن تفرغ الشاعرة من وصف العودة، ثم وصف الوطن، وأحداث التاريخ، تذهب إلى وصف حالتها هي، وشكل استقبالها للحدث، والمصاب الكبير، كما تسترجع أجمل اللحظات التي عاشتها مع الزوج... الذي كان بالنسبة إليها الخيمة والدفء والقبيلة والأب، والعطاء اللامحدود...

إن «آخر السيوف» ليست قصيدة عابرة، بل شاهد على الشعر العربي، والتاريخ العربي، وحالة فريدة في العشق والانتماء والحزن والإباء والانكسار، حالة شعرية مجيدة وجميلة تبلغ أقصى درجات الجمال والروعة، وتوضح تلك المحبة التي جمعت قلبين، وألّفت بين تاريخين، وربطت بين امرأة مبدعة وشاعرة عظيمة، وحبيبة مخلصة هي سعاد الصباح، ورجل كبير، عظيم، هو الشيخ عبدالله المبارك الصباح. وهنا أتوقف لأدع القصيدة تتحدث بصوت الشاعرة سعاد الصباح:

ها أنت ترجع مثل سيفٍ متعب
لتنام في قلب الكويت أخيرا
يا أيها النسر المضرّج بالأسى
كم كنتَ في الزمن الرديء صبورا
كسرتك أنباء الكويت ومن رأى
جبلاً، بكل شموخه، مقهورا ؟
ما كان يمكن أن تعيش لكي ترى
باب العرين، مخلّعاً... مكسورا
صعب على الأحرار أن يستسلموا
قدر الكبير، بأن يظل كبيرا
يا فارس الفرسان يا ابن مباركٍ
يا من حَميتَ مداخلاً، وثغورا
شَربَتْ خيولُك دمعها، وصهيلها
كيف الخيول تموت ؟ لا تفسيرا
ما عاد بحرُك أزرقاً، يا سيّدي
فكأنما صار النهار ضريرا...
الإخوة الأعداء مرّوا من هنا
كي يملأوا تاريخنا تزويرا
شنقوا الغنيّ على مشانق حقدهم
أما الفقيرُ فلايزال فقيرا...
غدروا بهارون الرشيد... وأحرقوا
كُتُب التراث... وأعدموا المنصورا
عبثوا بأجساد النساء... ودنّسوا
قبر الحسين... ودمّروا تدميرا...

لم يتركوا في الحقل غُصناً أخضراً

أو نخلةً ميساء . . . أو عصفورا
قضموا الكويت . . . كأنها تفاحةٌ
ورموا ثياب القاصرات قشورا
من ذا يحاسب حاكماً متسلّطاً
ذبح الشعوب حماقةً . . . وغرورا ؟
يا سيّدي . . . إن الشجون كثيرةٌ
فاذهب لربك، راضياً مبرورا
يتفتّت التاريخ بين أصابعي . . .
وأشاهد الوطن الجميل كسيرا
خذلوك، يا شيخ العروبة، عندما
جعلوا العروبة . . . مَسلخاً وقبورا . . .
ذبحوا الطموح الوحدويَّ . . . من الذي
يرضى بأن يتزوج الساطورا ؟!
جاؤوا إليك . . . لكي تبارك فِعلهم
يأبى الإباء بأن يكون أجيرا . . .
أأبا مبارك . . . كنتَ أنتَ قبيلتي
وجزيرتي . . . والشاطئ المسحورا
يا خيمتي وسط الرياح، من الذي
سيلُمُّ بعدك دمعيَ المنثورا ؟
يا مَن ذَهَبتَ، وما ذَهَبتَ، كأنني
في الليل أسمع صوتك البلّورا
أنت الربيع . . . فلو ذكرتك مرة . . .
صار الزمان حدائقاً . . . وعبيرا

أأبا مـــــبـــــارك، لو هناك مـــــدامعٌ
تكفي... لفــجَــرتُ الدمــوع نهــورا
مَــن ذا يــغــطِّــيــنــا بــريــش حــنــانــه ؟
من يملأ البــيتَ الكبــيــرَ حــضــورا ؟
أنتَ الســفــيــنــة، والمظلة والهــوى
يا مَن غــزلتَ ليَ الحنان جــســورا
غطّيــتــني بالدفء منذ طفــولتي
وفــرشتَ دربيَ، أنجـــمـــاً وحـــريرا
وحـــمـــيتَ أحــلامي بنخــوة فــارسٍ
لم تُلغِ رأياً أو قــمَــعــت شــعــورا
اللــه يعلم يا أبي... ومـــعـــلمي
كم كنتَ إنســاناً... وكنت أمـــيـــرا...
أأبا مـــبـــارك يا منارة عـــمـــرنا...
يا درعنا، وكـــتـــابنا المأثورا...
كنتَ الكويت أصـــالةً وحـــضـــارةً
ومناقـــبـــاً عـــربيـــةً وجـــذورا...
البـــحـــرُ أنت... يفـــيض عن شطآنه
قـــدرُ الكبـــيـــر بأن يكون كـــبـــيـــرا...
أأبا مـــبـــارك، ســـوف تبـــقى دائمـــاً
في العين كُـــحـــلا... والشـــفـــاه بخـــورا
يا آخـــذ الكـــلمـــات تحت ردائه
مـــا عُـــدتُ بعـــدك أُحـــسِنُ التـــعـــبـــيـــرا

لندن (حزيران) يونيو ١٩٩١م

وبعد القراءة... لابد من رصد جملة من الصفات المميزة في

هذه القصيدة النادرة، صفات تتآلف بشكل غريب، وتجمع جملة من المشاعر، يمكن وضعها تحت سبعة بنود وفق هذا الجدول:

صفة الكبرياء	صفة الانكسار	صفة الثبات	صفة الحزن	نداء خاص عطاء الحزن	جمال وعطاء عام	حاجة
• سيف • صبور • جبلاً • العرين • كبيرا • فارس الفرسان • شيخ العروبة • الإباء • إنساناً • أميراً • منارة • درعنا • كتابنا المأثور • الكويت • البحر • ابن مبارك • أبا مبارك	• متعباً • مضرّج بالأسى • كسرتك أنباء الكويت • مقهورا • باب العرين مخلعاً مكسورا • الخيول تموت	• شموخ • صعب على الأحرار أن يستسلموا • قدر الكبير بأن يظل كبيراً • اذهب لربك راضياً مبروراً • يأبى الإباء بأن يكون أجيراً • أصالة وحضارة • مناقباً عربية • جذورا • قدر الكبير بأن يكون كبيرا • حميت مداخلاً وثغورا	• في الزمن الرديء • ما عاد بحرك أزرقاً • صار النهار ضريرا • الشجون كثيرة • خذ لوك • فجرت الدموع نهورا • شربت خيولك دمعها	• يا سيدي • في العين كحلاً والشفاه بخورا • غطيتني بالدفء • فرشت دربي أنجماً وحريرا • قبيلتي • جزيرتي • الشاطئ المسحورا • خيمتي • غزلت لي الحياة جسورا • أبي • معلمي • الهوى	• يفيض عن شطآنه • أنت الربيع • صوتك البلورا • حدائقاً وعبيرا • السفينة • المظلة	• يا سيدي • في العين كحلاً • أنت الربيع • صوتك البلورا • حدائقاً وعبيرا • السفينة • المظلة

وقصيدة الرثاء ليست حالة طارئة في شعر سعاد الصباح، مثلما أن الحزن ليس طارئاً في قلبها، فقد تفطّر القلب قديماً بفقد الابن «مبارك»... فكان الانفجار الشعري الأول عبر نتاجها البكر الذي حمل عنوان «إليك يا ولدي»... وفيه مفاجأة أم لوّع قلبها الفراق المفاجئ، وصدمتها نكبة الرحيل المباغتة، حيثُ ما كادت تكتمل فرحة الطفل الأول، ولم تستمر بهجة الأمومة الأولى إلا وكان الموت هو اللحظة التي أعلنت تسلل الحزن إلى عينين «شابت فيهما الدموع» كما تقول في إهداء الديوان، حيث هذا الوصف النادر والغريب، فيحدث أن تبيضّ العين حزناً، أو تشيب الجفون كمداً، لكن الإحساس الشعري والعاطفي لدى سعاد الصباح يذهب إلى أن يشيب ماء الشجن المستحدر من العين الجميلة.

تقول سعاد الصباح في إهداء ديوان «إليك يا ولدي»:

«إليك يا ولدي... إلى من كان رجلاً رغم طفولة العمر... إلى من كان الأنيس، والرفيق، والصديق، في زمن ندر فيه هؤلاء، إلى من كان «مباركاً»، وستظل كذلك ذكراه، إلى ولدي... وإلى الأمهات اللواتي شابت في عيونهن الدموع... أهدي كلماتي».

والغريب أن حزن سعاد الصباح، لم يجرفه الزمن، بل أصبح يتعتق في القلب أكثر، وينضج، وينضح بكثافة كلما مرّ العمر، وكلما تذكرت لحظة الولادة ثم لحظة الموت. كانت دموع الكلمات هي التي تتحدث عن ذلك:

إنها تعزف نغمة اللهفة والفقد بصدق دون تصنّع أو مبالغة، فقلبها الرقيق مثل صوتها الرقيق... قابل دوماً للجرح، وأن يتكسر الهواء في الصدر بشكل مباغت... ورغم أن سعاد الصباح تحاول أن تلغي البدايات الشعرية بوصفها لها بأنها «خربشات طفولة»،

لكنها لا تلغي ذلك الإحساس المدفون في الشعر، بل تعتقد أن الإحساس كان أبلغ من كل الكلام، وأكبر من الشعر، وأعمق من اللغة.

لكن هذا العمق في الحزن، هو الذي أنتج تلك الرثائية التي تخاطب فيها سعاد الصباح فقيدها الغالي، طفلها البكر «مبارك» الذي ظلت تحمل اسمه حتى اليوم، وتعتبر أن لقب «أم مبارك» هو أسمى من كل الألقاب، وتفضله على لقب الدكتورة أو الشيخة أو الشاعرة.

تقول في «**إليك يا ولدي**»:

مبارك كان لي دنيا من الحب أناجيها
وآمالاً أعيش بها، وأحلاماً أغنيها
وللمستقبل المرجوّ أختال بها، تيها
فكيف اغتالها مني قضاء جاء يطويها
ويلقي بي إلى الظلمات تشقيني وأشقيها
كأني موجة في اليم قد ضلّت مراسيها
فيا ولدي، ويا ذخري من الدنيا وما فيها
أجب... من يغلب النار التي شبت ويطفيها؟
أما تشهد أيامي، وما أقسى لياليها
تعذبني دقائقها... وتحرقني ثوانيها؟

ومثل هذه الأمومة الطافحة التي تشتعل بها الكلمات حباً وشوقاً وألماً، ويتفجر بها الشعر، يحق لها أن تخلد في كل قلب يقرأ، ونفس تعرف قيمة الحب، وتكتب الرثاء بصدق جميل، وحزن جليل، وهي الشاعرة التي تعلقت بمحبة أبنائها... وألّفت فيما بعد ديواناً آخر يحمل اسم ابنتها الكبرى «أمنية».

صقر في فضاء الشعر

...«عفواً... هل جاءتك عروض زواج»؟!

سألها «مفيد فوزي» السؤال الذي لم تتوقعه... فساد صمت فرضته هي.

ثم تكلمت: لا يجرؤ أحد على ذلك!

سكتت قليلاً... وعادت تقول بنبرة الكبرياء نفسها: لا يجرؤ أحد على ذلك، فمن كان زوجها «عبدالله مبارك الصباح» وكواكب عمرها فرسانه وصباياه لايليق لها إلا أن تحمل اسمه وحده.

والشيخ «عبدالله مبارك الصباح» هو أهم المداخل إلى شخصية «سعاد الصباح»... بصفته الزوج والحبيب والمعلم... والفارس الذي كتبت في رثائه قصيدة «آخر السيوف» أما المدخل الآخر فهو الشعر... الذي كتبته في رحيل ابنها «مبارك» بداخل الطائرة... فكان انفجار الشعور... وكانت القصيدة.

... وبعد الحزن في الشعر... جاءت صرخة الأنثى الغاضبة في وجه القبيلة.

... ومع مدخل الشعر يدخل «نزار قباني» الذي ظل تهمة تلاحق سعاد الصباح... إذ ظلوا يقرأون لها قصيدة ويضعون أمامهم ديوانا لنزار ليبحثوا عن أوجه الشبه... ولكن سعاد الصباح- كما تقول هي- لا تحب الاختفاء وراء الكلمات... بل تنفجر: أستاذي الكبير نزار قباني ليس «شاعر شنطة» وإنما شاعر بنى عمارات شعرية على امتداد الوطن، نزار جامعة شعرية تعلمنا فيها جميعاً. نزار ليس شاعرا سرياً نخبئه تحت معاطفنا أكثر من خمسين عاماً... فمن منكم لم يتأثر بشعر نزار... فليرفع إصبعه!

... تقولها «سعاد الصباح» بثقة... فهي تعرف أن لا أحد لم يتأثر بشعرنزار.

... ولكن التهم لم تتوقف عند هذا الحد... بل ظلت تلاحقها طويلاً... حتى المال أصبح تهمة... قالوا عن المشاريع الثقافية التي تدعمها: إنها ملطخة بالنفط!

فسخرت منهم... وهمست إلى الآخرين: وهل يريدون أن أصرف أموالي على طاولات القمار؟!

... سعاد الصباح حالة خاصة في الشعر العربي... فهي الأميرة التي كسرت الطوق وهربت كمهرة جامحة تلاحقها البنادق.

.. أما أهم المداخل في حياة «سعاد الصباح» فهو الجمال.

جمال الطلة والوجه الذي حباها الله به، وجمال التكيف مع القصيدة.

كتبت يوماً:

كلما قبلت ثغري بجنون...

لاحت أمامي الهاوية

أنت تبقى في الهوى محترفاً

وأنا دوماً سأبقى... هاوية

فثاروا في وجهها: هذا خروج على الأخلاق.

ولكنها لم تلتفت... وأصرت أن تتعامل مع قصيدتها كما تحب:

على يديك...

اكتشفت للمرة الأولى جغرافية جسدي تلة تلة

ينبوعاً ينبوعاً رابية رابية

صرخوا في وجه شعرها مرة أخرى... إنها تتحدى تعاليمنا وعاداتنا؟!

أيضاً أصرت «سعاد الصباح» على الإخلاص لقصيدتها... وأثرت أن تكتب عن الحب وعن المحب كيفما تحب:

وعندما تنتهي من رسمي

اخرج من بين شفتيك مبللة كوردة
وشفافة كقصيدة.

وتطير «سعاد الصباح» مثل حمامة سلام لا يجرؤ أحد على اقتناصها... تظل تطير ولا تحط.

ومن يتأمّل القصر الأبيض من الداخل... لن يتمكن من إغفال ذلك التاريخ المسجل على جدران البيت، صورة الشيخ «عبدالله المبارك» تنطق بتاريخ عريق ومشع، ووجه الشيخة سعاد» يحفل بذكرياتها العطره، في يوم أخبرتني عن مشروع كتاب يوشك على الإنتهاء حوال المعلم والزوج الراحل. وفي يوم آخر وقفت عندها لتسجل لي هذا الإهداء:

«الأخ العزيز علي المسعودي...
تاريخ رجل ساهم في بناء الوطن...
وفاء لعبدالله المبارك الإنسان مع تقديري ومودتي».

عنوان الكتاب: صقر الخليج ـ عبدالله مبارك الصباح
الناشر: دار سعاد الصباح

أما الإهداء... فإلى: أولاد الرجل الكبير «عبدالله مبارك» وإلى أحفاده، وإلى الأجيال الكويتية القادمة التي ستضيء لها هذه السيرة العطرة معالم الطريق إلى المستقبل. إنها سيرة رجل عصامي، صنع نفسه، وساهم في صنع بلاده، وترك لقومه تراثاً يفاخرون به.

طلع «عبدالله مبارك» من أرض الكويت الطيبة، وعشق ترابها، ودافع عن أسوارها، ورفع راياتها، وتفانى في خدمتها منذ كان صبياً في الثانية عشرة من العمر، حتى وصل إلى رتبة «نائب

الحاكم». ورغم أن د. «سعاد» تكتب وفاء لـ «عبدالله مبارك» الإنسان... إلا أنها تتجاوز كل العواطف والانحياز المنطقي لأحب الناس، فتسجل تاريخ الكويت، والجزيرة العربية، منطلقة إلى الآفاق العربية بشكلها العام، مستنطقة أحلامها وآلامها وصراعاتها وكبواتها ونجاحاتها. في هذا الإصدار... تقدم المؤلفة وثيقة هامة ستصبح مرجعاً رئيسياً لكل الباحثين في نشأة الكويت وتطورها، ثم في أحداث قرن مضى من التاريخ العربي... كما أنها تلامس المستقبل ملامسة شفيفة عن طريق العودة إلى الماضي.

هذا الصقر مازال يحلق في فضاءاتها ويرفرف بشموخه ورقته أمام عينها... وهي لا تفتأ تذكره في كل مناسبة.

تذكره؟

وهل نسيته... حتى تذكرة؟ إنه نسيج من أنسجة الذاكرة. في التقديم نقرأ: إن هذا الكتاب ليس مجرد «قصة حياة» حتى ولو كان لرجل غير عادي واستثنائي كـ «عبدالله مبارك الصباح» إنما هو كتاب يوثق لمرحلة هامة من التاريخ الكويتي بكافة الأبعاد الوطنية منها والإقليمية والدولية. لا شك أن «الهدف والأسلوب»... أي «التوثيق التاريخي» و«منهج هذا التوثيق» يعدان «تحدياً» فكرياً وعملياً يفوق بكثير حدود «الكتاب الواحد» أو حتى «الكتب المتعددة» فتاريخ الكويت-رغم الصغر النسبي لمساحتها الجغرافية- خلال الحقبة الزمنية موضوع البحث... إنما هو تاريخ حافل بالأحداث الهامة والمؤثرة... وهو تاريخ لخصائصه المميزة وأبعاده المتنوعة.

وحياة الرجل... كإنسان ورجل دولة... هي حياة مليئة بالأحداث الهامة والمؤثرة... واللفتات المعبرة والنادرة، وقراءتها واستيعابها ليست بالأمر السهل.

تثبت د. «سعاد» في كتابها الضخم إنها باحثة من طراز فريد، وأنها

أغلقت هذا الجانب المتميز في حياتها لصالح الشعر... فالشعر متغطرس بطبعه لا يقبل منافساً أو شريكاً في العشق، لذلك انقطعت المؤلفة إلى القصائد كل هذا الزمن... لتأتي بموهبة فذة في مجال الدراسات المطولة التي مارستها من قبل في نطاق ضيق... يتكون الكتاب من خمسة فصول هي: عبدالله مبارك الإنسان، عبدالله مبارك رجل الدولة: بناء المؤسسات الحديثة، عبدالله مبارك رجل الدولة: علاقات الكويت الخارجية، العلاقات الكويتية- العراقية: من محاولات الهيمنه إلى الغزو العسكري.

أما الخاتمة فتقع تحت عنوان: ماذايبقى منه للتاريخ... ولماذا؟ ويحتوي الكتاب صوراً نادرة للشيخ موضوع الكتابة، بالإضافة إلى ملحق وثائق هامة تعزز الآراء والشواهد.

تكتب د. «سعاد»:

إن الغاية من هذا الكتاب، هي أكثر تواضعاً من أن ترتقي إلى شموخ «التوثيق الوافي» للتاريخ أو للرجل كمهتمين منفصلتين أو كمهمة واحدة... وإنما «التركيز» على دور «عبدالله مبارك» خلال مرحلة هامة من تاريخ الكويت، مع إبراز العلاقة الحميمة والتفاعل الوثيق بين حياة الرجل وتاريخ الوطن».

وليس هناك دوافع شخصية وراء ذلك... فالكتاب لايحاول أن يفرض «عبدالله مبارك» على تاريخ الكويت... فمكانه في التاريخ المعاصر لدولة الكويت ثابت. ومدعم بالحقائق. وإنما يكمن الهدف من هذا الكتاب في محاولة تسليط الأضواء على دوره الهام في تاريخ الكويت لإتاحة الفرصة للأجيال الجديدة، لكي تتعرف على المؤسسين الأوائل للدولة وإسهامهم التاريخي في بناء المؤسسات،

وإرساء دعائم الحكم، وعلى الرموز التاريخية المضيئة، التي صنعت تاريخ الكويت الحديث.

وفي ذكرها لمناقب الشيخ «عبدالله» تذكر د. «سعاد»: بالرغم من أن الرجل أنحدر من أصول قبلية ونشأ في أحضان البداوة، إلا أن عينه كانت دائماً مصوبة إلى أفق العصر. وبالرغم من أنه مواطن من دولة خليجية صغيرة... إلا أن أحلامه كانت تحلق دائماً في فضاء العرب والعروبة. وبالرغم من أنه لم يتلق إلا قسطاً من التعليم... إلا أنه كان حازماً في قراراته، صلباً في مواقفه، وفي كافة الأحوال اتسم سلوكه بالعدل بين الناس دون تفرقة أو تمييز بين غني وفقير، بين ابن الصباح ومواطن آخر، بين صديق له وآخر من عامة الناس.

■ **عبدالله مبارك الصباح:**

● ولد في ٢٣ آب «أغسطس» ١٩١٤، والده مبارك الكبير مؤسس دولة الكويت الحديثة.

● شارك في الثانية عشرة من عمره في حراسة إحدى بوابات سور الكويت.

● عمل مساعداً للشيخ علي الخليفة كحاكم لمدينة الكويت وكمدير لدائرة الأمن العام.

تولى مسؤولية مكافحة التهريب والإشراف على البادية.

● قام بمهام نائب الحاكم في عهد الشيخ عبدالله السالم وامتد نشاطه إلى العديد من المجالات، فأسس محطة إذاعة الكويت (١٩٥٢)، ونادي الطيران ومدرسة الطيران (١٩٥٣) ودائرة الطيران المدني (١٩٥٦). وكان الرئيس الفخري للنادي الثقافي القومي كما ترأس مجلس المعارف لأكثر من فترة.

● تم دمج دائرتي الشـرطة والأمن العـام في دائرة واحـدة تحت رئاسته عام ١٩٥٩ .

● وضع اللبنات الأساسـيـة في بناء القـوات المسلحـة الكويتيـة منذ تعيينه قائداً عامـاً للجيش عـام ١٩٥٤ وعمل على تزويد الجيش بالأسلحة الحديثة والتدريب المتطور.

● كان لـه دور عـربي بارز، وقـام بإلغـاء تأشيـرات الدخـول بالنسبـة للعرب رغم معارضة الوكيل السياسي البريطاني، ودعا إلى انضمام الكويت إلى الجامعة العربية عام ١٩٥٨

● دخل في أكثر من مواجهة مع السلطات الإنجليزية بسبب حرصه على استـقـلال الكويت وإصـراره على عدم تدخل لندن في الشؤون الداخلية لها.

● قـدم اسـتـقـالتـه من كل مناصـبـه في إبريل ١٩٦١، وقـرر عـدم الاستمرار في الحياة السياسية.

● توفى في ١٥ يونيو عام ١٩٩١

السيمفونية الرمادية..
مشهد جنائزي للحب!

الحزن يتأصل في العنوان...

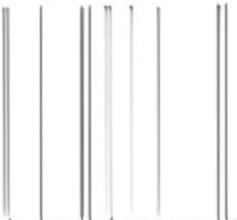

«السيمفونيه الرماديه»...

اللون المحايد... الأبيض وهو يتمدد نحو السواد... استحضار لروح السمفونيات: الربيع الحزين فيها... والضحكة الجنائزية!

يبدأ العنوان بتلميحات الشحوب، لكنه يوقع في النفس وقعاً مثل ختم الرسائل، مثلما تريد الشاعرة تماماً... تصنع في القلوب.

« يا أحبابي »...

بهذه الخطابية الودودة، والشكل الحواري الشفاف، تستفتح «سعاد الصباح» قصيدتها، مقترحة حضوراً مستمعاً قبل أن يكون قارئاً.

مناداة بالمحبة، ثم تبرير هو بمثابة تقديم... يؤسس لحزن آتٍ، عبر فرح اللقاء الأول عند كلمة:

« يا أحبابي »...

التبرير: **« كان بودي »...**

بسط للمودة، وندم ندي،

« كان بودي أن أسمعكم »...

هذي الليلة »...

تبدأ الحكاية... الشاعرة وأحبابها، المتحدثة ومستمعوها، شهرزاد... والقتلة الذين يطاردونها:

يا أحبابي...

كان بودي أن أسمعكم

هذي الليلة، من أشعار الحب.

هو ما اعتاده المتلقى من شاعرته الأثيرة.

هو ما عرفه من حب متلاطم في قلبها، وما أيقنه من جمر متأجج في موقد قصائدها.

ليس الشاعرة الكاتبة... فقط هي صانعة الحب، التي دوّخت القلوب بهمسها الحار، وحرفها الدافئ... ونطقها الأخاذ...

لكن المرأة بشكل عام... تنتمي إلى هذه الخريطة، الخريطة التي يتمدد فوقها ماء الحب المسكوب من قلب المرأة، من شفتيها،

من حنانها، وتوقها المستمر لحديث الحب...

« فالمرأة من كل الأعمار،
ومن كل الأجناس،
ومن كل الألوان
تدوخ أمام كلام الحب »

لم تستثن الشاعرة امرأة... من هذا التعميم، فكل امرأة مهما كان عمرها، مهما كان جنسها، أو لونها... «تدوخ»... بكلام الإحساس اللذيذ.

تأخذ الشاعرة الكلمة من ذروة التعبير، وقمة الصياغة، وأقصى التفاعل الإنساني... ليكون الرصد الدقيق والعميق لرد فعل امرأة تسمع كلام الحب...

«تدوخ»... بحرارة الحب.

تسمعه وتتلمسه، تتنهده، وتتنفسه، ترتكبه... وتركب موجه دون أن تعرف أين ستتجه؟ إلى الغرق، أم إلى بر الأمان...

المهم أن تعيش من وحي دوامة الحب... دوخان اللحظة...

«تدوخ أمام كلام الحب...

كان بودي أن أسرقكم بضع ثوانٍ
من مملكة الرمل، إلى مملكة العشب ».

وهي الشاعرة التي اعتادت أن ترش مناطق الصيف بشتائها، وتهدي للشرفات ربيعها. هي الشاعرة...

اعتاد مستمعها أن تخرجه من «الرمل... إلى العشب»... من الجدب... إلى المطر، ومن الجفاف... إلى الاخضرار...

لكن الألم الثقيل يمطر فوق أرض الآمال، فيحولها ركاماً... طيناً ووحلاً... لكنّ في عصر عربي فيه توقف نبض القلب...!!

ليس هذا وقت الحب إذن، ولا حضور لاقتراح «الحب في الحرب»... فالجدب ينتشر في الضلوع، وتتشابك عظام المأساة، حتى تخنق القلب... ويسقط بعروق نازفة، باكية:

يا أحبابي:

كيف بوسعي

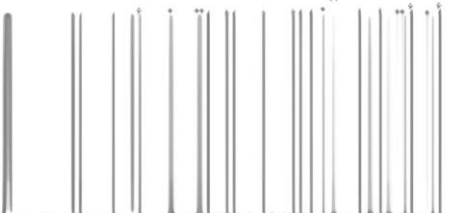

أن أتجاهل هذا الوطن الواقع في أنياب الرعب ؟
كيف بوسعي
أن أتجاوز هذا الإفلاس الروحي
وهذا الإحباط القومي
وهذا القحط . . . وهذا الجدب ؟

يتصاعد الحزن شيئاً فشيئاً... كنا قد حضرنا باقتراح أن حفلة أنس ستكون في المكان... لكن اختيار الشاعرة كان شكلاً آخر من التلويع... جذبتنا بكلامها اللذيذ... «**يا أحبابي**» . . .

سحبتنا إلى مغارة الحقيقة... حيث الكنوز المفقودة دون أن ندري...

لم نكن نعرف أن كل هذه المسروقات في مغارة «علي بابا» هي آلامنا وأحلامنا وقصص حبنا، وكرامتنا

لم نكن نعرف أننا لا يجب أن نعشق ونشتاق في زمن يفترس الشعر، ويحوله إلى نعي كامل وتام... للفرح...

تجيد سعاد الصباح كعادتها وصف المشهد، بإخراج بارع، وسيناريو متقن، وحوار خاص يقع في كل نفس توقعة الأخاذ، والموجع... تكتب بالدم... قبل الحبر.

بمداد الدمع، وبشهقة القلب، بلوعة الفؤاد، تكتب فوق الأجساد... لا على الورق. على الأرواح... لا على المكاتب... تكتب... كأنما تجهش:

يا أحبابي:
كان بودي أن أدخلكم زمن الشعر
لكن العالم وأسفاه . تحول وحشاً مجنوناً .
يفترس الشعر . . .
يا أحبابي:
أرجو أن أتعلم منكم
كيف يغني للحرية من هو في أعماق البئر ؟
أرجو أن أتعلم منكم

كيف الوردة تنمو من أشجار القهر ؟
أرجو أن أتعلم منكم
كيف يقول الشاعر شعراً
وهو يقلب مثل الفرخة فوق الجمر ؟
هو زمن الشعراء إذن . . . لا زمن الشعراء .

هكذا تنعي سعاد الصباح الشعر، وزمن الشعر بتوليفة حزن بري... يحمل في كل الميادين توليفة من كلمات الندى... وكلمات القتل. الوردة... والمشنقة...

بئر الحرمان... والحرية،
القمح... والجوع...
الحب... والقتل

تجمع سعاد بلغتها الشفافة، والغاضبة معاً كل هذه الأضداد، لتترجم إحساسها بنهاية الشعر.

إنها أشبه بحفل تأبين لقتيل الأمة، ومشهد شعري للمسير في جنازة الفقيد، الذي يجب أن يدفن... في زمن الفوضى واللاترتيب.

هكذا تنعانا سعاد إلى أنفسنا، بهذا الكلام الموجع الذي لم نعتده منها، وكم آلمنا أن نكتشف كل هذا الحزن... في قلب سعاد.

وكم أحزننا... أن نعود منها بلا قصيدة حب...

بلا ضفائر، ولا حمام، ولا قبل، ولا أحضان ولا أشواق... كم أتعب قلوبنا... أن نذهب إلى سعاد الصباح، ولا أحد منا يطوق خصر حبيبته... أو يهمس في أذنها مثل شجرة تضم عصفوراً من برد الشتاء...

يا أحبابي:
لا هذا عصر الشعر، ولا عصر الشعراء
هل ينبت قمح من جسد الفقراء ؟
هل ينبت ورد من مشنقة ؟
أم هل تطلع من أحداق الموتى
أزهار حمراء ؟

هل تطلع من تاريخ القتل قصيدة شعر ؟

أم هل تخرج من دائرة المعدن يوما قطرة ماء ؟

تنتهي السيمفونية الرمادية... التي تضمها مجموعة سعاد الصباح الشعرية «خذني إلى حدود الشمس».

ومن هنا نعرف شوق سعاد في العنوان إلى الخروج من هذا المكان، والطيران إلى أقصى وأبعد فضاء.

إلى منبع الضياء، إلى وهج العطاء... إلى الذوبان الأبدي الذي لا رجعة منه «الشمس»... حيث لا ظل للأشياء. ولا تزوير في أشكالها وحقيقتها... هناك في حدود الشمس يمكن أن ننسى كل هذا الترويع... تختم «سعاد الصباح» قصيدتها:

تتشابه كالرز الصيني...
تقاطيع القتله
مقتول يبكي مقتولاً
جمجمة ترثي جمجمة
وحذاء يدفن قرب حذاء
لا أحد يعرف شيئاً عن قبر الحلاج
فنصف القتلى في تاريخ الفكر،
بلا أسماء.

هكذا تختتم عزف الدماء، وحزن الجمر، وانطفاء النار... نار الحب... التي انطفأت وتحولت إلى رماد...

وقد عزف الرماد سمفونيته...

قال بكائيته...

ثم نفخ فيه الجلادون... وطار في الفضاء... علّه يبلغ الشمس... ويعود جمراً كما كان...

وفي أوردة الجمر، قد تنبض الحياة من جديد، يتحرك في قلبها كائنان ينبضان وينهضان ليتعانقان من جديد، ويرسمان شكلاً طازجاً للحب...

امرأة بلا سواحل

دائماً تأخذنا لقضاياها، أي: تأخذنا لقضايانا. كأنها تربط بين نفسها وهذا المسمى: «امرأة بلا سواحل».

«... أما الشعر فقد كان منّة الله عليّ، ولم أطارده بقدر ما كانت حياتي ضحية رائعة لعطائه.

... أما الشعر فهو ليلي الجميل الغارق بالنجوم، وبالغيوم، وبالأحلام.

... كان الشعر وسيبقى نافذة، روحي على الدنيا، ومنتشلي من غبار العذاب» تقول سعاد الصباح.

هو الإطلال على الدنيا عبر نافذة الروح إذن... هو الشعر الذي تدافع عنه شاعرة الفصل الخامس بقولها: «... يا لهذا الذي ظلم بالقول إنه شيطان، كيف يأخذنا إلى عالمه طائعين وفرحين، كأطفال العيد، ثم يضعنا أمام أنفسنا مجردين إلا من الصدق، وما للصدق شكل وحيد».

إذن... فعبارة مثل «أعذب الشعر أكذبه» تصبح باهتة، شاحبة، وقليلة الأدب... أمام دفاع هذه الشاعرة عن هذا الشعر.

تأخذنا سعاد الصباح طائعين وفرحين إلى عالمها.

المرأة والبحر: الخصوبة والعطاء والغموض... والغرق أحياناً.

الفرق أن المرأة... بلا سواحل!

وهذه الحورية الطرية المشعة، التي صاغها الفنان اللبناني عجاج العراوي في غلاف الديوان... هل تخرج من البحر أم تنجب البحر؟!

سعاد الصباح تطرح في مجموعتها الشعرية «امرأة بلا سواحل» الشعر والقضايا: الجمال، الحب، الوطن، المرأة، الرجل... والقمع!

كما تطرح الشعر والمشاعر: الحب النبيل في «تمنّيات استثنائية لرجل استثنائي»، الاندفاع في «اعترافات امرأة شتائية»،

أسئلة الخوف في «افتراضات»، الحزن القاتم في «القصيدة السوداء» والرفض في «ثورة الدجاج المجمد».

عشر قصائد ضمتها الشاعرة في مجموعة أنيقة صدرت عن «دار سعاد الصباح»، نثرت من خلالها بوحها، وهمومها القديمة المتجددة: «... في كل شعري إنسان واحد، يجده من يقرأ، فإذا بحث عني كنت هناك بين فواصل الكلمات عنواناً».

تراقب وجه الحبيب وتستحثه، تنتظر - بشغف مشاعرها الناعمة - الكلمة التي تعيدها من جديد... في أجمل مقاطع المجموعة:

قل لي: (أحبك)

كي تزيد قناعتي...

أني امرأة...

قل لي: (أحبك)...

كي أصير بلحظة

شفافة كاللؤلؤة...

في استفتاحها للمجموعة الشعرية تكتب هذا المقطع... وكأنه الإهداء المعتاد الذي يتصدر النتاجات الثقافية:

«فرق كبير بيننا... يا سيدي

فأنا الحضارة... والطغاة ذكور»

تعلن هذا الانحياز المتطرف ضد «الذكورة» ثم توقع باسمها «سعاد».

وهذا الانحياز ليس بفعل قرار فردي مولود مع الشاعرة، وإنما هو نتاج المجتمع الذي تعايشه المرأة العربية. ولكنها مع ذلك، رغم الانحياز للأنوثة، والاعتزاز بها ضد الذكورة، لا تتخلى عن طبيعة

بكلمة الإكبار، أو كلمة الانحناء، حتى تستطيع التعبير:

« يا سيدي » :

يا أيها المخبوء من عشرين عاماً . . . في الوريد
يا من يغطيني بمعطفه
إذا سرنا معاً فوق الجليد
مادمت لاجئة لصدرك
ما الذي من هذه الدنيا أريد ؟

وهي هنا لا تتخلى عن تنازل المرأة العربية عن كل شيء عندما تحب... لهذا «السيد»... إذ يصبح قلبه كل شيء... حتى الوطن.

كما لا تتخلى عن مراهقتها... ولا تتنازل عن شقاوتها... وطلباتها البسيطة «الرومانتيكية»: أن تمشي معه فوق الجليد! والمرأة عندما تحب... تصبح كالإعصار، عنيفة، مندفعة، وهي في الوقت ذاته كقطعة الثلج... تذوب على الفور، بمجرد شعاع يسقط إليها من لوز عينيه.

حبّي انتحاريّ . . .
فلو رميتني في البحر ، ذات ليلة
وجدتني . . . أسير فوق الماء . . .

الحب الكبير الذي يسكن المرأة العربية، يولّد خوفاً كبيراً، وهذا الخوف يولّد أسئلة حارة موجعة... والشعر هو الأسئلة.

لذلك نجد سعاد الصباح تملأ قصيدتها «افتراضات» بتلك الأسئلة... بذلك الشعر، كأنها تمازج بين غريزة الموت وغريزة الحياة...

أليس في وسع هذا التناسل الفني أن يغرينا بأن نفك الارتباط الميكانيكي بين فروق الانهيار، وبأن نواصل الدفاع عن منطقة في

النفس لا مصلحة جمالية لأحد في أن يشملها الانهيار... أليس من حق علامات الاستفهام أن تنهال علينا... هكذا:

إذا ما افترضنا...

إذا ما افترضنا...

بأنك لست حبيبي...

فماذا أكون ؟

وماذا تكون ؟

وكيف أقول بأني أنثى ؟

إذا لم أخبئك: تحت الجفون

وما قيمة العشق، يا سيدي

إذا لم يسافر ببحر الجنون ؟ ؟

في «بصمات» تنساب الأسئلة أيضاً، ولكنها ليست تلك الأسئلة في القصيدة السابقة، ففي هذه القصيدة تأخذ لغة سعاد الصباح وأفكارها الشقية شكلاً آخر.

شكل الصنعة، شكل الطين الفني الذي نشكله حسب أهوائنا... وحسبما يمليه هوانا:

« حاولت ترحيلك

إلى الوجه الثاني من القمر...

فلما طلع القمر

عدت مع أشعته »

في هذا المقطع أيضاً تؤكد الشاعرة... ذلك الشعور العربي القديم بالانتماء إلى القمر... وحالة التوحد معه... حيث لا يصبح أمام العاشق مفرّ سواه. أما في بداية القصيدة فيبرز ذلك التحضر الذي شهدته المرأة العربية في تعاملها مع حياة جديدة لها مفردات جديدة:

ماذا أفعل بتراثك العاطفي

المزروع في دمي . . .
كشجرة ياسمين ؟
ماذا أفعل بصوتك الذي
ينقر كالديك وجه شراشفي ؟
ماذا أفعل ببصمات ذوقك
على أثاث غرفتي ؟ . . .

• • •

حاولتُ أن أقتلع رائحتك
من مسامات جلدي . . .
فتساقط جلدي . . .
ولم تخرج أنت ! !

وباختصار، تقف الشاعرة - المرأة العربية، بشموخ وباستكانة في الوقت ذاته، تخاطب «رجلها»... لتعطيه الأمان وكأنها تعنّفه:

« يا سيدي »
لا تخش أمواجي . . . ولا عواصفي
ألا تحب امرأة ليس لها سواحل ؟ ؟ . .

في «القصيدة السوداء»... تلتف الكلمات بعباءة سوداء...

أنحّي الديوان جانباً وألتقي بصاحبته وأسألها:

ماذا عن مستقبل الحلم العربي... يا دكتورة سعاد؟

فتجيب:

- أخشى أنني لم أعد أسمع الكلمات جيداً. تسألني عن الحلم العربي؟! اسألوني عن الكابوس، فذلك هو الأكثر صدقاً وأمانة!

لم يبق من الحلم العربي سوى شواهد قبور الشهداء، وقوافل

المعذبين... ارحمونا بألا تذكرونا بالكلمة: «الحلم»... لأنني أخشى أن نفيق على كابوس العدم، كما ننام على حافته اليوم!

شرخ عميق يكاد لا يندمل.

وأعود للقراءة:

كم غيّرتني الحرب . . . يا صديقي
كم غيرت طبيعتي
وغيرت أنوثتي
وبعثرت في داخلي الأشياء
فلا الحوار ممكن
ولا الصراخ ممكن
ولا الجنون ممكن
فنحن محبوسان في قارورة البكاء . . .
فمن ترى يقنعني
أن السماء لم تزل زرقاء ؟
وأننا . . .
في زمن التلوث الروحي . . .
والفكري . . .
والقومي . . .
يمكن أن نظل أصدقاء ؟ ؟

أخيراً وجدت هذه الدهشة الاستنكارية من يطرحها: لقد بُتر الهامش الذي كان يوفر للعلاقة نعمة الحوار وفاعليته! ومن بين هذه المواجع تنسل «سعاد الصباح» لتعود إلى فطرتها الأولى... فطرة المرأة العربية التي تطأطئ خجلاً أمام الرجل السيّد، وتتلقى «الدرس الخصوصي» إجابة على هذا السؤال:

من أين تأتي بالفصاحة كلها . . .

وأنا . . . يموت على فمي التعبير ؟!

وتعاود أيضاً معركة الكلام مع الرجل في قصيدتها «للأنثى قصيدتها ... وللرجل شهوة القتل».

أسألها: هل يهمك رأي النقاد كثيراً؟

فتجيب: لا تصدّق أدبياً ينفي اهتمامه بالنقد وبما يراه النقاد، ولكن الذي لا أعبأ به هو الطعن تحت عباءة النقد، أي أن يكون موقف الذي ينبري للنقد مسبقاً من المنقود. ليس النقد شتيمة مهذبة، إنه قراءة واعية وعالية للمضمون، بعيداً عن شخص الكاتب، فالمسألة ليست تعريضاً بالكاتب، ولا يجوز أن تكون. إن النقد الحقيقي هو الحوار مع النص، وليس مع الكاتب وعائلته ولائحة طعامه وشرابه!... انتهى كلامها.

المرأة العربية... في هذا المجتمع العربي تبقى ملاحقة دائماً بالاتهامات، وسعاد الصباح ضمن هذا الموكب... وربما هي أكثر شاعرة واجهتها التهمة... وفي هذه المجموعة تختار أن تقف في وجه التهمة:

سيظلون ورائي
بالبواريد ورائي
والسكاكين ورائي
والمجلات الرخيصات ورائي . . .
فأنا أعرف ما عقدتهم
وأنا أعرف ما موقفهم
من كتابات النساء . . .

وفي «ثورة الدجاج المجمّد» تستمر ثورة الشاعرة، ضد

التخلف... في هذه القصيدة ينزّ الجرح الموجع في قلب الشاعرة:

سأثأر...

للحائرات، وللصابرات...

وللقاصرات اللواتي اشترين صباهن...

مثل البذار... ومثل الحقول...

سأصرخ:

باسم العذارى اللواتي...

تزوجتهن... وطلقتهن

كما تُشترى، وتباع الخيول!!

●●●

لسوف أعيدك يا سيدي

بكل احترام،

كما جئتني بالبريد!!

وفي هذه القصيدة، تتبدى مفارقة لا توجد إلا في الشعر العربي ربما... وفي شعر المرأة العربية بالذات... فرغم هذا الكره وهذا الرفض، وهذا الاحتجاج تقول:

أنا لست أنثاك... «يا سيدي»!!

وكذلك: **لسوف أعيدك... «يا سيدي»!!**

تأخذنا سعاد الصباح دائماً لقضاياها... تأخذنا لقضايانا... تأخذنا: «للوطن».

بصمات

- أما الشعر،، فقد كان منّة الله عليّ، ولم أطارده بقدر ما كانت حياتي ضحية رائعة لعطائه. كان الشعر وسيبقى نافذة روحي على الدنيا، ومنتشلي من غبار العذاب.
- الدبابة دائماً هي أسوأ مفاوض في التاريخ، وقوة المعدن لا يمكن أبداً أن تنتصر على قوة البصيرة والعقل... والصاروخ قد يهدم مدينة... ولكنه لا يهدم تاريخ شعب، وتراثه وعنفوانه.
- إن الثقافة لا يمكن أن تكون محايدة في قضية كبرى كقضية الحرية، وبالتالي لا يمكن للمثقف أن يقف في نقطة الوسط بين الحرية وبين العبودية... وإلا تحوّل إلى لاعب سيرك.
- يوم مات عمّي بعد أن سمع نبأ الغزو، كانت الثالثة صباحاً، والجثة هامدة ساكنة أمامي مغطاة على السرير بملاءة بيضاء، عشت الكارثة بكل أبعادها، اجتياح لوطن، وفقد عزيز هو بمثابة والدي، أين أذهب بالجثة وهو الذي حلّفني بكل المقدسات أن يدفن في الكويت، وقفت أصلي في الفجر، تشاركني دموعي، دموع حارة موجعة، لا أملك مهما وصفت لك، طعم مرارتها، ساعات مريرة وأنا أنتظر في المستشفى حتى يطلع الصباح. بكيت كثيراً... بكيت فقد ابني، بكيت نكسة ٦٧ انكسارنا القومي، بكيت رحيل عبدالناصر، بكيت عندما شعرت أنه حتى القبور سرقوها ولا يعطوننا تأشيرة دخول إلى أرضنا لندفن موتانا.

● د. سعاد الصباح

السيرة الذاتية

الشيخة سعاد محمد صباح المحمد الصباح.

الميلاد: ١٩٤٢/٥/٢٢.

الأبناء: مبارك (١٩٦١ - ١٩٧٣)، محمد، أمنية، مبارك، شيماء.

الدراسة

١٩٧٣: «بكالوريوس» اقتصاد وعلوم سياسية مع مرتبة الشرف. جامعة القاهرة.

١٩٧٦: «ماجستير» في «التنمية والتخطيط في الكويت».

١٩٨٣: دكتوراه في الاقتصاد - جامعة ساري غلفورد البريطانية.

الأعمال والأنشطة

- مؤسسة ورئيسة «دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع».
- عضو «المجلس الأعلى للتعليم».
- رئيسة مجلس إدارة «مكتب الاستشارات الاقتصادية».
- كرّمتها جامعة «أكسفورد» البريطانية بمنحها درجة الزمالة لكلية «سانت كاترين».
- عضو مؤسس لمنظمة حقوق الإنسان في الوطن العربي».
- عضو اللجنة التنفيذية لـ «المنظمة» العالمية للنساء المسلمات لجنوب شرق آسيا».
- عضو «مركز الطاقة» في جامعة ساري غلفورد - المملكة المتحدة.
- عضو مجلس الأمناء واللجنة التنفيذية لـ «منتدى الفكر العربي» في عمّان.

- رئيسة شرف «جمعية الصداقة البريطانية - الكويتية».

- عضو اللجنة التنفيذية في جمعية «أوليف بادن» الدولية للمرشدات - لندن.
- عضو مجلس إدارة «مشروع بحوث الشرق الأوسط والمعلومات» في واشنطن.
- عضو مؤسس في «المجلس العربي للطفولة والتنمية» - القاهرة.
- عضو المجلس الاستشاري في «الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة» - لندن.
- عضو مجلس الأمناء في «مؤسسة التعاون» - جنيف.
- عضو مؤسس في «المؤسسة الثقافية العربية» - لندن.
- عضو «الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية».
- عضو مجلس الأمناء في «المجلس الدولي حول التعليم لأغراض التدريس» - الولايات المتحدة.
- عضو مجلس الرعاية في «المركز الدولي للحقوق النقابية» - براغ.
- عضو مركز المرأة للمعلومات.
- عضو «الجمعية النسائية الثقافية الاجتماعية» - الكويت.
- عضو «لجنة دعم التعليم».
- عضو «جمعية الصحافيين الكويتية».
- رئيسة اللجنة الثقافية في «نادي الصيد والفروسية».
- عضو مجلس الأمناء ومجلس الإدارة في «المؤسسة الثقافية العربية» - بيروت.
- عضو مجلس الأمناء في «مركز الدراسات العربية» - جامعة اليرموك.
- عضو مساعد في «مركز الدراسات العربية» - بيروت.

- عضو في «جمعية علم الاجتماع العربية» - تونس.
- عضو في «الجمعية الاقتصادية العربية» - القاهرة.
- عضو «الاتحاد العالمي لاقتصاديات الطاقة».
- عضو «رابطة الصداقة الكويتية - الأميركية» - الكويت.

الأعمال الشعرية

١٩٦١: «ومضات باكرة»، وكان أول كتاب يصدر بتوقيع امرأة خليجية.

١٩٦١: «لحظات من عمري».

١٩٦٣: «من عمري».

١٩٧١: «أمنية».

١٩٨٢: «إليك يا ولدي».

١٩٨٦: «فتافيت امرأة»

١٩٨٨: «في البدء كانت الأنثى».

١٩٨٩: «حوار الورد والبنادق».

١٩٩٠: «هل تسمحون لي أن أحب وطني» (نثر).

١٩٩٠: «برقيات عاجلة إلى وطني».

١٩٩٢: «آخر السيوف».

١٩٩٢: «قصائد حب».

١٩٩٤: «امرأة بلا سواحل».

١٩٩٥: «عبدالله المبارك - صقر الخليج» (كتاب).

١٩٩٧: «خذني إلى حدود الشمس».

١٩٩٩: «القصيدة أنثى والأنثى قصيدة».

• • •

● ترجم شعرها إلى اللغات: الإنجليزية والفرنسية والصينية والإيرانية والألمانية والبلغارية والجيورجية والأوكرانية والطاجيكية.

- صدر عدد من الكتب عن تجربتها الشعرية.
- لها مؤلفات عدة عن قضايا حقوق الإنسان.
- لها مؤلفات في الاقتصاد.
- شاركت في مؤتمرات اقتصادية متعددة.
- ألقت عدداً من المحاضرات المتعلقة بالنفط والتنمية الاقتصادية.

تمنح سعاد الصباح ثماني جوائز أدبية سنوياً لتشجيع الشباب في الوطن العربي، أربع منها تحمل اسم: «جوائز الشيخ عبدالله المبارك الصباح للإبداع العلمي»، والأربع الأخرى هي: «جوائز سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي».

وتخصص أربع جوائز لإبداع خريجي الجامعة الأميركية في بيروت كل عامين، وجائزة للمسرح بالتعاون مع مسرح المدينة في بيروت.

فضلاً عن إسهام غير محدود في دعم المؤسسات والمشروعات الثقافية في الكويت والوطن العربي.

ومن موقعها كرئيس لمبرة المغفور له الشيخ عبدالله مبارك الصباح، تقدم المنح الدراسية لمجموعة من أساتذة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة للحصول على شهادات الدكتوراه.

كما تقدم جائزة سنوية لأفضل كتاب منشور عن الشرق الأوسط في لندن، باحتفال تشارك فيه سفارة دولة الكويت. وقد أنشأت مكتبة الشيخ عبدالله الصباح في جامعة القاهرة، ومكتبة الشيخ عبدالله مبارك في ثانوية الفروانية في الكويت، وعشرات المراكز التعليمية والدينية والمساجد في الكويت والعديد من الدول العربية والإسلامية والأفريقية. ودفعت بالمئات من الطلبة إلى متابعة التعليم في مختلف مراحله وخاصة الجامعية. ولم تبخل بتقديم الدعم المطلق لتوفير مقر للمنظمة العربية لحقوق الإنسان في القاهرة، ومنتدى الفكر العربي في العاصمة الأردنية.

وأسهمت وتسهم في المشروعات الثقافية الهادفة إلى تنوير الطفل عبر «الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية»، وترعى مسابقات «جائزة عبدالله المبارك لحفظ القرآن الكريم» في جمهورية كازاخستان.

شهادات

● حق المرأة في «قول الحب»... هو الغاية المنشودة في شعر سعاد الصباح...

● أ. د. هند أديب

● انقضى أكثر شعرها في منازلة ثلاث سلطات هي: مقاليد الزمان، وقيود المكان، وتقاليد الإنسان، حتى أنه ليخيّل للناقد أن تلك السلطات الثلاث لا تجد سبيلاً إلى الخلاص من منازلات سعاد.

● أ. د. سمير شريف إستيتيّه

● هي التي تختار أن تسحب أنوثتها من المزاد العلني وأن تتعامل مع البعض بصفتها الإنسانية الخالصة بعيداً عن لعبة الذكر والأنثى أو العاشق والمعشوق.

● شوقي بزيع

● سعاد الصباح في نقدها لعلاقة الحب السائدة تؤسس لعلاقة جديدة في الحب.

● د. علي سليمان

● تتدافع قصائد سعاد الصباح في الحب كابتهالات رقيقة.

● محمد علي شمس الدين

● تتفرد بجماليات لم يسبق إليها شعر نسائي في شعرنا الحديث.

● د. محمد حسن عبدالله

● جمعت بين العمق والبساطة وكشفت في اللغة المتداولة عن كنوز من الإنسانية والجمال.

● د. ثروت عكاشة

● مفعمة بالشعور القومي والانتماء العروبي النقي.

● د. سهام الفريح

● سجلت واحدة من أقوى المراثي وهي تغمض بيديها عينيّ فتاها السليب.

● د. صلاح فضل

● تتمحور تجربتها الإبداعية حول محورين متلازمين: المرأة ثم الوطن.

● د. محمد رجب النجار

● غضب سعاد الصباح هو من نوع آخر... واضح ومضيء!

● رجاء النقاش

يتفتت التاريخ من بين أصابعي
وأشاهد الوطن الجميل كسيرا

للمؤلف:

١ - مملكة الشمس - مجموعة قصصية - دار سعاد الصباح - القاهرة ١٩٩٢.
٢ - رجوع، مجموعة قصصية، دار الجديد - بيروت، ١٩٩٤.
٣ - محسنون من بلدي - الجزء الأول - بيت الزكاة - الكويت ١٩٩٦.
٤ - تقاطيع، مجموعة قصصية - دار الحدث - الكويت، ١٩٩٨.
٥ - مذكرات عانس، قصة طويلة - دار الحدث - الكويت، ١٩٩٩.
٦ - فايق عبدالجليل... رحلة الغياب والحضور، سيرة أدبية - دار قرطاس - الكويت.
٧ - حمامة السلام... د. سعاد الصباح، لقاءات أدبية مع الشاعرة - دار «المختلف» - الكويت ٢٠٠٠.
٨ - عري، نصوص شعرية - دار الحدث - الكويت ٢٠٠٠.
٩ - تكلموا فقالوا، حوارات مع شعراء الخليج - دار «المختلف» - ٢٠٠١.
١٠ - حديث الشعر، حوارات مع أدباء عرب، دار «المختلف» - ٢٠٠٤.
١١ - كلام النثر عن الشعر - نقد - دار المختلف - ٢٠٠٤

مؤلفات جاهزة الطبع:

١ - زمن الملح - رواية.
٣ - مرايا - مقالات أدبية.
٤ - صوت الدماء الخافت - رصد لتجربة الأمير الشاعر بدر بن عبدالمحسن الأدبية.
٥ - ذاكرة الجدران - مجموعة قصصية.

المحتويات

إهداء 3
تقديم 5
موجز نشرة الحب 9
ميلاد للوطن.. للحب.. للناس.. للشعر 13
شيء من سيرة الحب 29
سأذهب معك إلى آخر حدود أنوثتي 37
حوار يبدأ ولا ينتهي 45
أسئلة وفاكسات 57
قلوب بيضاء في القصر الأبيض 61
طيوف الغد في آخر السيوف 67
صقر.. في فضاء الشعر 79
السيمفونية الرمادية.. مشهد جنائزي للحب! 87
امرأة بلا سواحل 93
بصمات 102
السيرة الذاتية 103
الأعمال والأنشطة 103
الأعمال الشعرية 106
إسهامات ثقافية 108
شهادات 109
المحتويات 112

يا أحبائي:

لا هذا عصرُ الشعر، ولا عصر الشعراء

هل ينبت قمح من جسد الفقراء؟

هل ينبت ورد من مشنقةٍ؟

أم هل تطلع من أحداق الموتى

أزهارٌ حمراء؟

هل تطلع من تاريخ القتل قصيدة شعرٍ؟

أم هل تخرج من ذاكرة المعدن يوماً قطرةُ ماء؟